صموئيل جونسون

اقرأ

الوادى السعيد

تعريب : الدكتور لويس عوض




اقرأ
تصدر فى أول كل شهر


دار المعارف بمصر


بأسلوب اليوم وتفكير الغد

تأليف : صموئيل جونسون
ترجمة : الدكتور لويس عوض

الوادى السّعيد

اقرأ ٣٤٤
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٤ - أغسطس سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

— ١ —

فى عام ١٩٤٦ اتفقت مع دار الكاتب المصرى ، وكان مستشارها يومئذ الدكتور طه حسين ، على ترجمة روايتين عن الإنجليزية من اختيارى لتصدرا ضمن مطبوعات الدار المذكورة . وكانت دار الكاتب المصرى قد أصدرت الطبعة الأولى من ترجمتى لرواية أوسكار وايلد الشهيرة « صورة دوريان جراى » ، التى اختارها للدار الدكتور طه حسين : وقد ترجمتها برغم احتجاجى على هذا الاختيار ، نزولا على إرادة أستاذنا طه حسين . وقد أسست هذا الاعتراض على اعتبارين : الاعتبار الأول أن أوسكار وايلد هو زعيم مدرسة « الفن للفن » فى الأدب الإنجليزى ، وبرغم تقديرى لموهبته واعترافى بمكانته فى الأدب الإنجليزى كنت أوثر أن أخصص جهدى ووقتى لترجمة أديب آخر ممن يؤمنون مثلى بالأدب فى سبيل الحياة . أما الاعتبار الثانى فهو أنى ، من حيث المبدأ ، لا أحب أن أتصدى لعمل يمكن لغيرى أن يتقنه ، ولم أكن أرى فى عمل أوسكار وايلد صعوبة خاصة تحتاج إلى علم أستاذ فى الجامعة مختص فى اللغة الإنجليزية وآدابها . وحين عرضت على طه حسين أن أترجم لدار الكاتب المصرى « الفردوس المفقود » للشاعر ميلتون ، ضحك أستاذنا وقال : إنك تريدهم أن يفلسوا ، لا تنس أن الناشرين تجار .

وبعد أن صدرت « صورة دوريان جراى » ، كان لا بد أن أختار ما يليها . وبعد تفكير قررت أن أقوم بدور المعلم بطريقة عملية . لقد كان فن الرواية فى مصر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية قائماً على الاجتهاد .

كان هذا الفن قد اجتاز مرحلة الخطر ، ما بين « زينب » وبدايات نجيب محفوظ عبر توفيق الحكيم وطه حسين . وكانت « الترجمة » الفنية فى الفن القصصى تكاد أن تكون مقصورة على جهود محمد السباعى فى نقل القصة القصيرة الأوربية ، وخاصة عن موباسان وتشيكوف ، إلى اللغة العربية . أما « الترجمة » الفنية للرواية فلم تعرفها العربية فى تلك الفترة إلا فى ترجمة الزيات « لآلام فيرتر » وترجمة أحمد الصاوى محمد لروايتى أناتول فرانس « تاييس » و « الزنبقة الحمراء » . ولم يكن أحد يعد ترجمة « البؤساء » لفكتور هيجو ولا ترجمة المنفلوطى « لمجدولين » الفونس كار و « بول وفيرجينى » لبرناردان سان بيير ترجمة بأى معنى حقيقى . كانت « بؤساء » حافظ إبراهيم عملا رائعاً حقاً ولكنها كانت عمل حافظ إبراهيم لا عمل فكتور هيجو ، وكان حجمها نحو واحد على مائة من النص الأصلى : أما مترجمات المنفلوطى فقد كانت نصوصاً رائعة فى النثر العربى وكانت الغذاء اليومى لشباب العشرينات ، وربما لشباب الثلاثينات ، ولكنها أيضا كانت « بقلم » المنفلوطى لا بقلم مؤلفيها الحقيقيين . من أجل هذا كانت هذه الآثار العظيمة نماذج رائعة فى فن « الاقتباس » لا فى « الترجمة » .

ولا شك أن العربية خلال العشرينات والثلاثينات عرفت عشرات من النماذج فى ترجمة الرواية من نقولا يوسف إلى عمر عبد العزيز أمين ، عرفت ترجمة الرواية بالمعنى المتعارف عليه ، غير أن هذه الترجمات عن إسكندر دوماس وميشيل زيفاكو وتشارلز ديكنز وكونان دويل والكونتيسة أوركزى إلخ . . كانت إما نقلا تغلب عليه العجلة والركاكة لبعض روائع الأدب العالمى ، يختفى فيه « الأدب » ولا يبقى إلا السرد والحوار والوصف . وإما نقلا لروايات المغامرات المثيرة التى يقبل عليها الناس لإزجاء الفراغ ولكنها عديمة القيمة من الناحية الأدبية . ومع ذلك فقد كانت هذه الروايات المثيرة هى المدرسة الأولى التى تعلم فيها المصريون

« فن الرواية » أكثر مما تعلموه من جهود حافظ إبراهيم والمنفلوطى ؛ لأنها برغم قصورها ، حافظت على هيكل الروايات المترولة ، ومن خلالها تعلم من يريد أن يتعلم كيف يكون السرد وكيف يكون الحوار وكيف يكون الوصف وكيف يكون بناء الشخصية . من خلال هذه المترجمات الساذجة لنصوص بعضها ساذج وبعضها شامخ ، تعلم من يريد أن يتعلم « تكنيك » الرواية كما يمارسونه فى التقاليد الأوربية التى أخذنا عنها فن الرواية .

ومع هذا فقد بقيت الرواية مظلومة . فقد بقى أن يظهر لها رعيل من المترجمين الفنيين الذين لا يتصدون إلا للروائع الأدبية من ناحية ، ولا يشاطرون الروائيين تأليف رواياتهم حين يترجمونها من ناحية أخرى ؛ كما فعل محمد عثمان جلال وحافظ إبراهيم والمنفلوطى . ثلاثة أركان كان ينبغى أن تتوافر : اختيار روائع الرواية فى الأدب العالمى ، وأمانة النقل فى حرص شديد ، ورفعة العبارة العربية أوجودتها على أقل تقدير ، بحيث تدخل الترجمة فى إطار الأدب كما دخل النص فى إطار الأدب فى لغته الأصلية . بهذا وحده يمكن للروائى العربى الناشئ أن يتعلم شيئاً كثيراً عن فن الرواية دون إحاطة باللغات الأجنبية . بعبارة أخرى : كنا بحاجة إلى تجديد التقاليد الأدبية التى أرساها فى فن الترجمة العربية أحمد حسن الزيات وأحمد الصاوى محمد . إن محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين لم يكونوا بحاجة إلى « نماذج » من الرواية مترجمة إلى العربية لينشئوا ما أنشأوا فى فن الرواية لأن طريقهم إلى الأصول كان طريقاً مفتوحاً نتيجة لإتقانهم اللغات الأجنبية . أما الأجيال الجديدة من الأدباء الشبان الذين لم يتح لهم علم هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين فقد كانوا بحاجة حقيقية إلى هذه النتائج ، إن لم يكن لحسن الإنشاء فلحسن التذوق على أقل تقدير .

وهذا كان دور دار الكاتب المصرى : فتح هذه المدرسة الجديدة

لشباب الأربعينات . وكان طه حسين خير رائد لهذه المدرسة . بتوجيهه نشرت دار الكاتب المصرى نماذج من آثار فولتير وستندال ودوستويفسكى وأوسكار وايلد وأندريه جيد و هـ.ج. ولز والدوس هكسلى وسانت أكزوبيرى وغيرهم . ولو أتيح لهذه الدار أن تستمر أكثر من عامين لفعل بها طه حسين فى الأربعينات من القرن العشرين ما فعله الطهطاوى بمدرسة الألسن فى الأربعينات من القرن التاسع عشر .

وكان أهم درس تلقيته فى تجربة تقديمى لأوسكار وايلد هو أنى بعد أن قدمت لدارسى الأدب عملا نموذجيا يمثل مدرسة الفن للفن ، كان من واجبى أن أقدم لهم أعمالا نموذجية تمثل بقية مدارس الأدب : الرواية الكلاسيكية ، والرواية الرومانتيكية ، والرواية الطبيعية ، والرواية الواقعية ، والرواية القائمة على تيار الوعى . وبدأت بالرواية الكلاسيكية فاخترت نموذجاً لها هذه الرواية التى نسميها « الوادى السعيد » لصمويل جونسون ، وهى من آثار القرن الثامن عشر فى الأدب الإنجليزى ، واسمها الأصلى : « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » . وبعد أن أنجزت ترجمتها فى باريس فى صيف ١٩٤٦ ، اخترت عملا آخر يمثل نموذجاً من المدرسة الطبيعية ، أو الناتورالية كما يسمونها ، وكان هذا العمل هو رواية ضخمة فى خمسمائة صفحة ، هى رواية « إستر ووترز » Esther Waters لجورج مور George Moore ، من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد فرغت من ترجمتها ، إذا لم تخنى ذاكرتى ، فى ربيع ١٩٤٧ ، أو قبيل ذلك . وقد بدأت بالنموذج الكلاسيكى ثم بالنموذج الناتورالى ، لأن الرواية الكلاسيكية والرواية الناتورالية كانتا حتى ذلك الوقت مجهولتين تماماً فى العربية . وأجلت النموذج الرومانتيكى لأن قارئ « آلام فيرتر » The Sorrows of Werther لجوته Goethe كان يستطيع أن يجد فى ترجمة الزيات مثلا حياً منها يعينه على تفهم منهج الرومانسيين فى بناء الرواية . وبعد أن وقعت عقد « إستر ووترز »

مع دار الكاتب المصرى أغلقت الدار أبوابها فى ظروف غير طبيعية وصفت مطبوعاتها ، وتنازلت فى صفقة التصفية عن كل مخزونها من الكتب وعن عقودها مع المترجمين والمؤلفين لمكتبة الخانجى . وبعد فترة شرعت مكتبة الخانجى فى نشر « إستروونرز » لجورج مور تحت اسم تجارى هو « المعذبات فى الأرض » ، وبعد أن طبعت نحو ثلثمائة صفحة ضاع منها نحو خمسين صفحة من مخطوط هذا الكتاب فتوقفت عن الطبع . وكنت يومئذ فى أمريكا فكتب إلىّ نجيب الخانجى يستأذن فى استئجار مترجم يترجم الصفحات الضائعة حتى يتمكن من طبع بقية الرواية ، ولكنى رفضت رفضاً باتاً خشية أن يرزأنى بمترجم جاهل بأسرار اللغة الإنجليزية يدس على أخطاء فى الترجمة تسىء إلى سمعتى واستمهلته فى إتمام طبع الكتاب حتى عودتى من أمريكا . فلما عدت بعد سنة أو نحوها اكتشفنا أن المطبعة قد أضاعت المائتى صفحة الباقية فى المخطوط . وهكذا أسدل الستار على ترجمتى « لإستر ووترز » لجورج مور وعلى محاولتى تعريف الناس بالمدرسة الناتورالية فى الآداب الأوربية . ولكن لعل هناك بعض العزاء فى أن رسول الناتورالية وسيدها الذى لا ينازع ، ألا وهو إميل زولا Emile Zola ، صاحب « الأرض » La Terre و « جيرمينال » Germinal و « بنت الحان » L'Assomoir (حرفيا : « مفقدة الوعى » ، يقصد الخمر) وبقية دراساته الروائية فى الوراثة المعروفة بسلسلة « روجون ماكار » Rougon Macquart ليس غريباً عن شطئان مصر أو عن قراء العربية .

أما « الوادى السعيد » ، أو على الأصح « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » ، فقد نجت من الضياع لأنى لم أكن قد تعاقدت عليها بعد ، حين صفيت دار الكاتب المصرى . فألقيت مخطوطها فى أدراجى نحواً من خمس وعشرين سنة ، بين ذاكر وناس ، أحفل بها ولا أحفل ، لأنى من أولئك القوم الذين لا يلتفتون كثيراً إلى الوراء بل يؤثرون دائماً

النظر إلى الغد قبل الأمس ، حتى قيض الله لها دار المعارف لتنشر صحائفها المطوية . فعسى ألا نكون قد ارتكبنا وزراً عظيماً بنبش هذا الماضي البعيد . وقد ترجم هذه الرواية الأستاذ الدكتور مجدى وهبة ونشرت ترجمته دار المعرفة منذ نحو عشر سنوات .

— ٢ —

وصمويل چونسون Samuel Johnsou مؤلف « راسيلاس » Rasselas ، أى « الرأس إيلاس» هو أعظم ناقد فى تاريخ الأدب الإنجليزى بلا منازع ، أما فى باب الأدب الإنشائى فليس له إلا شعر قليل متوسط القيمة ، وهذه الرواية القصيرة ، وهى من ضرب « النوفيلو nouvello » وهى كذلك متوسطة القيمة برغم أنها تمثل علامة من علامات الطريق فى تاريخ الرواية الإنجليزية .

ولد صمويل چونسون فى بلدة ليتشفيلد Lichfield بمقاطعة ستافوردشاير Staffordshire بإنجلترا فى ١٨ سبتمبر ١٧٠٩ وتوفى فى لندن فى ١٣ ديسمبر ١٧٨٤ عن ثلاث وسبعين سنة . وكان أبوه مايكل چونسون Michael Johnson من مواطنى ليتشفلد البارزين ، المرتاحى الحال ، فقد كان ينتمى إلى الطبقة المتوسطة التى لا تعرف الثراء الفاحش ولا خصاصة العيش . وكان وراقاً ، أى صاحب مكتبة ، ذكر عنه ابنه چونسون فيما بعد أن وراقته ، أو مكتبته « درت عليه شيئاً ولكن لم تدر عليه ما يكفى » . كذلك كان الأب ما يكل چونسون مأموراً لبلدة ليتشفيلد وقت ولادة صمويل . وكان الأب رجلا متديناً محافظاً ، ذا ميول سياسية متشيعة للملكية المطلقة ، قيل عنه إنه كان من أشياع الملك المعزول جيمس الثانى James 11 الذى خلع فى ثورة ١٦٨٨ لأنه أحيا نظرية حق الملوك الإلهى فى حكم إنجلترا وجنح بالكنيسة الإنجليزية إلى

شيء قريب جداً من الكثلكة ، فاجتمعت كلمة حزب «التورى Tory» (المحافظين) وحزب « الهويج » Whig (الأحرار) على خلعه فى الثورة البيضاء عام ١٦٨٨ ، تلك الثورة التى عرفت فى تاريخ إنجلترا « بالحل الوسط العظيم » أو « التوفيق العظيم » Grand Compromise لأنها قامت على تراضى المحافظين والأحرار على صيغة وسطى هى إقامة حكم البلاد على « الملكية المقيدة » بدلا من إقامته على الملكية المطلقة أو إقامته على النظام الجمهورى ، وبذلك نزل المحافظون عن تطرفهم ، ونزل الأحرار عن تطرفهم والتقوا فى منتصف الطريق .

أما أم صموئيل چونسون فقد كان اسمها سارة Sarah ، بنت كورنيليوس فورد Cornelius Ford وهو من صغار الملاك فى مقاطعة واريكشاير Warwickshire وكانت امرأة تقية تميل إلى الكالڤينية فى الدين Calvinism ، وهو مذهب متطرف من مذاهب البروتستانتية أسسه المصلح الدينى كالڤن Calvin يقوم على الإيمان بالجبر ويرفض أن يكون الإنسان مختاراً فى هذه الدنيا ويعلق كل شيء ، حتى الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، على ما يسمى « نعمة الله » . والأم هى التى قامت على تنشئة ولدها صموئيل من الناحية الدينية .

وكان صموئيل چونسون منذ طفولته معتل الصحة كليل البصر . وكان مصاباً بداء كان يسمى « داء الملك » وهو سل فى غدد الرقبة ، وكان من الخرافات الشائعة وقتئذ أن هذا الداء يشفى بلمسة من الملك . وهكذا حملت مسز چونسون طفلها صموئيل ، وكان يومئذ فى الثالثة من عمره ، إلى لندن عام ١٧١٢ ، ومثلت فى حضرة الملكة آن Queen Anne التى تفضلت على الطفل باللمسة الملكية ، ولكن دون أثر إلا ما بقى فى خيال صموئيل چونسون من ذكريات غامضة عن طفولته الباكرة عن « سيدة مرصعة بالماس تلبس كبوداً أسود طويلا »

ثم التميمة الذهبية التى لفتها الملكة حول عنقه وظل يحملها إلى يوم وفاته .

وفى ١٧١٧ دخل الغلام صمويل چونسون مدرسة ليتشفيلد حيث بدأ تعلمه للغة اللاتينية ، وأبدى استعداداً للتعلم عظيماً برغم ما أثر عنه من كسل وميل للتسويف فى أداء واجبات المدرسة . فلما انتقل إلى الدراسة الثانوية كان أستاذه فى اللاتينية ناظر المدرسة . توماس هنتر Thomas Hunter ، وكان جهبذاً فى مادته ولكنه كان مؤدباً قاسياً يجلد تلاميذه بالسياط « لينقذهم من المشنقة » كما كان يقول . قال صمويل چونسون عنه فيما بعد : « كان أستاذى يجيد جلدى ، ولولا هذا ، يا سيدى ، لما حققت شيئاً » .

وبعد أن أتم چونسون دراسته الثانوية تفرغ لمعاونة أبيه فى مكتبته ، ولكنه كان يزاول القراءة فيها أكثر مما كان يزاول البيع والشراء. وقد كانت هذه فترة تكونه الحقيقية ، وكان يغوص فى كتب القدماء ، لا يجذبه من الكتب إلا كل جاد ورفيع . قال : « لا كتب الرحلات والأسفار ياسيدى ، ولكن كلها أدب فى أدب ، كلها من كتب القدماء ، كلها من أعمال الرجال » . فلما التحق بجامعة أكسفورد عام ١٧٢٨ ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره كان يعرف أكثر من أقرانه .

واللغز فى حياة صمويل چونسون هو : كيف أتيح للكتبى المتواضع ما يكل چونسون أن يدخل ابنه جامعة أكسفورد التى كانت ولا تزال معقلا من معاقل الأرستقراطية الإنجليزية وسراة القوم ؟ ومهما يكن من شىء فقد بدأت متاعب صمويل چونسون المالية تتجلى وهو فى أكسفورد، وظهرت عليه الخصاصة ثم عجز نهائياً عن استكمال دراسته بسبب سوء حالته المالية فترك الجامعة فى ديسمبر ١٧٢٩ بعد عام وبعض العام من الدراسة . تركها بغير شهادة جامعية أو أى مؤهل يعينه على الحياة .

وكسدت تجارة أبيه ثم توفى فى ١٨٣١ فلم يرث صمويل جونسون من تركته إلا عشرين جنهاً نزح بها إلى برمنجهام بعد تجربة مريرة مر بها كمدرس مساعد فى مدرسة أولية . وفى برمنجهام عاونه صديق من أصدقائه على ترجمة كتاب من الفرنسية إلى الإنجليزية لقاء خمسة جنيهات ، وكان هذا الكتاب هو : « رحلة إلى الحبشة » بقلم الأب جيروم لوبو Jerome Lobo . وفى أثناء مقامه فى برمنجهام تزوج جونسون فى ١٧٣٥ من أرملة اسمها إليزابيث تكبره بعشرين عاماً ، جاءته بدوطة قدرها سبعمائة جنيه . فأنشأ فى بلدة قريبة من مسقط رأسه مدرسة داخلية يتعلم فيها أبناء الأشراف اليونانية واللاتينية ، وكان بين تلاميذه الممثل العظيم دافيد جاريك David Garrick ولكنه أغلق مدرسته بعد عامين لقلة التلاميذ .

وقرر جونسون أن ينزح إلى لندن طلباً للعيش والمجد ، فنزح إليها عام ١٧٣٧ مع تلميذه دافيد جاريك الذى سطع اسمه فى عالم المسرح كما سطع اسم جونسون فى عالم الأدب . وفى لندن بدأ جونسون جهاده الأدبى فساهم فى تحرير مجلة جديدة يومئذ اسمها « جنتلمانز ماجازين » Gentleman's Magazine أى « مجلة الجنتلمان » أسسها عام ١٧٣١ رجل يدعى إدوارد كيف Edward Cave . وفى أوائل ١٧٣٧ عاد إلى ليتشفيلد حيث أتم تراجيديا باسم « إيرين » Irene كان قد بدأها أيام مدرسته ورجع بزوجته إلى لندن . و « إيرين » مأساة استقاها جونسون من « تاريخ الترك » لرتشارد نولز Richard Knowles حول قصة السلطان محمد الثانى (الفاتح) مع عذراء يونانية اسمها إيرين .

وهكذا اشتغل جونسون بالصحافة فى صدر حياته . وفى ١٧٣٨ نشر غفلاً من التوقيع قصيدته المعروفة : « لندن » ، وهى هجاء للفساد السياسى فى عصره على غرار هجائيات الشاعر اللاتينى الكبير

جوفينال Juvenal فنجحت نجاحاً عظيماً ، وامتدحها بوب Alexander Pope سيد شعراء العصر وصدرت منها ثلاث طبعات ، ولكنها لم تعد على جونسون إلا بعشرة جنيهات . ولم تكن حياة الصحفى فى ذلك العصر تنقذ صاحبها من الفاقة ، فحاول جونسون أن يعود إلى التدريس والمحاماة ولكنه فشل لفقدانه المؤهل الجامعى اللازم لهذه أو ذاك . وكان يعاون « مجلة الجنتلمان » فى تدوين خلاصة لمحاضر جلسات مجلس العموم ومجلس اللوردات فكان « يفبرك » هذه المحاضر فى لغة أدبية رائعة وينسب إلى رجال السياسة أقوالا وخطباً من تصوره. وكان شديد الاحتقار للأسرة المالكة ، أسرة أورانج Orange ثم أسرة هانوفر Hanover (الهولندية ثم الألمانية) الأجنبية التى آل إليها ملك إنجلترا بعد طرد ورثته الشرعيين من آل ستوارت Stuart أى بعد خلع جيمس الثانى James II عام ١٦٨٨ . كذلك كان جونسون يمقت حكم الوزير الشهير روبرت والبول Robert Walpole رئيس وزراء إنجلترا الذى أثر عنه قوله المعروف بالإشارة إلى أعضاء البرلمان البريطانى : « لكل ثمنه » . وكانت آراء جونسون السياسية تسبب لمجلة « جنتلمانز ما جازين » بعض الحرج .

وفى السنوات العشر الأولى من إقامة جونسون فى لندن ، نشأت بينه وبين الشاعر ريتشارد سافدج Richard Savage صداقة عميقة ، وكان سافدج شاعراً وممثلا وشريكاً لجونسون فى كثير من آرائه السياسية وأخاً فى الفقر والمسغبة . وما أكثر ما كانا يتجولان الليالى الطويلة حول الميادين المحيطة بوستمنستر Westminster مقر البرلمان البريطانى لا يملكان أجر سرير فى بدروم . فلما مات سافدج سنة ١٧٤٤ جاشت عاطفة جونسون فى دراسته الشهيرة « سيرة ريتشارد سافدج » The Life of Richard Savage التى نشرها غفلا من التوقيع فى ١٧٤٤ ، وكانت فيما بعد نواة لكتابه الأشهر « سيرة الشعراء الإنجليز » Lives of the English Poets



وهذه السيرة من أروع ما خط بيان كاتب فى باب السير فى جميع اللغات وفى كل العصور . وقد وصفها الروائى العظيم هنرى فيلدنج Henry Fielding بأنها أروع رسالة فى اللغة الإنجليزية عن فضائل الإنسان ورذائله . كذلك ظهر اهتمامه بالمسرح ، وكان تلميذه الممثل جاريك قد شق طريقه فى عالم الأضواء بسرعة سريعة ، فلمع فى ١٧٤١ ، وما حل عام ١٧٤٧ حتى كان جاريك صاحب امتياز مسرح « دورى لين » Drury Lane ، أشهر مسارح لندن فى ذلك العهد . وفى ١٧٤٥ نشر جونسون دراسته الشهيرة « ملاحظات على تراجيديا ماكبث وهى الدراسة التى ذهبت مثلا بين النقاد على موقف النقد الكلاسيكى من الدراما الشكسبيرية . وساعد جاريك أستاذه جونسون على عرض مسرحيته وهى مأساة « إيرين » عام ١٧٤٩ ، وقد استمر عرضها تسع ليال ، ولم يتجاوب معها الجمهور لأنها من مسرحيات الخاصة .

وفى ١٧٤٦ كان جونسون قد اكتسب هيبة بين أهل العلم والتعلم ، برغم ضآلة موارده المالية ، فاتفقت جماعة من الناشرين على اختياره لإعداد « قاموس اللغة الإنجليزية » يشتركون جميعاً فى تمويله . ووقعوا مع جونسون عقد هذا القاموس عام ١٧٤٦ . وفى العام التالى نشر جونسون « خطة القاموس » . وفى ١٧٤٩ أيضاً أصدر جونسون قصيدته الثانية المعروفة « عبث أمانى الإنسان » The Vanity of Human Wishes وصور فيها أن كل مسعى إنسانى فى الحرب والسياسة والعلم والفلسفة هو باطل الأباطيل وقبض الريح ، كما كان يقول سليمان الحكيم . . ولم يكف عقد القاموس ولا المجد الأدبى الذى أصابه فى تحسين حالته المادية ، فأصدر فى ١٧٥٠ ولمدة عامين مجلة دورية باسم « ذا رامبلر » The Rambler ، أى « الجوال » أو « الجواب » ، وكانت هذه المجلة عبارة عن فرخ واحد من الورق يصدر مرتين كل أسبوع ، ويحتوى على مقال واحد بقلم جونسون غفل من التوقيع ، وكانت المجلة تباع

ببنسين . ولم يكن هذا شيئاً مستحدثاً فى تاريخ الأدب ، لأن كل من درس تاريخ الصحافة يعرف أن الكاتبين الإنجليزيين الكبيرين إديسون Addison وستيل Steele قد سبقاه إلى ذلك بسنوات حين أصدرا مجلتهما الشهيرة «ذا سبكتاتور» The Spectator على هذا الغرار : أى بالمقال الإنشائى عماداً للصحيفة أو المجلة ولا شيء آخر غير ذلك ، فوضعا بروعة الإنشاء أساس ما يسمى « بأدب المقال » . وهكذا حذا جونسون حذوهما ومضى ينشر العدد بعد العدد من مجلة « ذا رامبلر » حتى انطوى عامان ، وكان يكتب فى موضوعات الأخلاق والاجتماع والسياسة والأدب ، فيطالب آناً بإلغاء عقوبة الشنق على اللصوصية أو يصف بؤس حياة البغايا أو يصور أحداث الحياة الأدبية إلخ . . وتوقفت « الرامبلر » ، وساءت صحة جونسون وأصيب بنوبة من الكآبة عندما ماتت زوجته إليزابيث . ولا أحد يعرف كيف كانت حياته الزوجية مع هذه المرأة التى كانت تكبره بعشرين عاماً . ولكن يظن أن هذا الزواج غير المألوف كان يقوم على الحب المادىّ والإعجاب المتبادل . ويظن أن زوجته إليزابيث عندما تقدمت بها السن أدمنت الشراب وبعض المخدرات ، ولا شك أن هذا كله كان مصدر انزعاج شديد لجونسون . وبعد أن توفيت زوجته بثلاثين عاماً وضع جونسون على قبرها شاهداً من رخام يقول باللاتينية : « Formosa, Culta, Ingenuosa, Pia » . أى : « جميلة ، مهذبة ، ماهرة ، وتقية » . فلما سئل فى ذلك أجاب : « فى النقش على شاهد القبر لا يؤدى المرء يمين الشهادة » .

أما وضع «قاموس اللغة الإنجليزية Dictionary of the English Language فقد استغرق ثمانى سنوات ونصف سنة ، وفرغ منه جونسون عام ١٧٥٥ بمعاونة عدد من السكرتيرين . والقاموس لا يشتمل إلا على ٤٠,٠٠٠ مادة ولكنه فى إتقانه وضبط معانيه وخصوبة شواهده وذكاء شروحه وتعليقاته كان درة القرن الثامن عشر . و « قاموس » جونسون لا يذكر

اليوم إلا للتندر بما ورد فيه من طرائف تقوم مقام الشروح مثل قوله فى تعريف القرطم : « نوع من الحبوب يقدم عادة للخيل فى إنجلترا ، وتأكله عامة الناس فى اسكتلندا » . وحين صدرت الطبعة الأولى من القاموس كانت جامعة أوكسفورد قد منحت چونسون درجة الماجستير فى الآداب تقديراً له على مقالاته فى مجلة « الرامبلر » فتوج هذا المحروم من المؤهل الجامعى صفحة الغلاف من قاموسه بهذا اللقب الأكاديمى يزدان به اسمه . وكان اللورد تشسترفيلد Lord Chesterfield ، وهو من صفوة النبلاء الأدباء أصحاب التأملات والأساليب فى القرن الثامن عشر ومن رعاة الأدب فى عصر التنوير ، قد أبدى اهتماماً برعاية « قاموس » اللغة الإنجليزية فى بداية وضعه ، ولكنه لم يلبث أن أهمله تماماً ، ولم يعن صاحبه بشيء . فلما صدر الجزء الثانى (والأخير) من « القاموس » ، حياه اللورد تشسترفيلد بمقالين فى مجلة « ذاورلد » The World أى (العالم) تحية سخية ، ووصف چونسون بأنه « الدكتاتور الأعظم للغة الإنجليزية » بمعنى أنه سيدها الذى لا ترد له كلمة ولا يخالف له رأى . فبعث إليه چونسون برسالة شهيرة تفيض بالمرارة والتهكم يقول فيها لسيدى اللورد : « إن الاهتمام الذى تفضلتم وأسبغتموه على جهودى ، لو أنه تجلى مبكراً لكان عطفاً ، ولكنه تأخر حتى فقدت اكتراثى به ، ولم أعد أغتبط له ، تأخر حتى بت وحيداً فلا أجد من أحدثه عنه ، حتى غدوت مشهوراً فلا حاجة بى إليه » .

وهكذا غدا چونسون علماً من أعلام العلم والأدب فى إنجلترا ، وبرغم هذا لم تنقذه شهرته من حياة الضنك التى كان يحياها . وفى مارس ١٧٥٦ قبض عليه فى دين قيمته خمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً ، ولم ينقذه من السجن إلا الروائى صمويل ريتشاردسون Samuel Richardson ، صاحب « باميلا : أو جزاء الفضيلة » Pamela, or Virtue Rewarded ، وأحد أقطاب الفن القصصى فى إنجلترا فى القرن الثامن

عشر : فقد أرسل إليه ريتشارد سون ستة جنيهات. فلم يجد جونسون مناصاً من العودة إلى مزاولة الصحافة ، وأخذ يكتب المقدمات لكتب عديمة القيمة لقاء المال . ومضى لسنوات يكتب المقالات فى السياسة والأدب والأخلاق والإصلاح الاجتماعى ، بعضها لمجلة « ذاليتراري ما جازين » The Literary Magazine (أى (المجلة الأدبية) وبعضها أسبوعياً لمجلة « ذا يونيفرسال كرونيكل » The Univcrsal Chronicle (شيء قريب من « أخبار العالم ») تحت عنوان جامع هو « ذا ايدلر » The Idler (أى المتسكع) . وكانت بعض آرائه السياسية ثاقبة ومتمردة على روح عصره ، فقد كان كثير التنديد بالاستعمار الإنجليزى والاستعمار الفرنسى ولا سيما فى أمريكا ، وكان يصف خلاف إنجلترا وفرنسا حول المستعمرات الأمريكية بأنها « شجار بين لصين على سلب المارة » . ولم ير فرقاً بين المستوطنين فى سلام والمستعمرين بقوة السلاح ، ولخص الفرق بينهما بأنه الفرق بين « نشال يخرب بيتك فى صمت ونهاب يغتصب بالقوة » ولم يخف أن يعلن أن الاستعمار الفرنسى كان أقدر من الاستعمار الإنجليزى على اختيار الحكام الصالحين للمستعمرات .

وفيما كان جونسون مشغولا بمقالات « المتسكع » (الأيدلر) جاءه النبأ بأن أمه مريضة مرض الموت ، وبرغم رقة حاله بعث لها باثنى عشر جنيهاً فى ١٣ يناير ١٧٥٩ . ولكنه كان يعلم علم اليقين بأنه سوف يحتاج عاجلا إلى مزيد من المال لمواجهة نفقات جنازة أمه . فأرسل إلى الناشر ستراهان Strahan يستعطفه أن يزوده بثلاثين جنيها ثمناً لرواية يكتبها اسمها « اختيار الحياة أو سيرة أمير الحبشة » . وكانت... هذه رواية « راسيلاس : أمير الحبشة » Rasselas, Prince of Abyssinia أو الرأس إيلاس » ، هذه التى يجدها القارئ بين يديه تحت عنوان « الوادى السعيد » . وهكذا أكب جونسون كل مساء أسبوعاً

كاملا على كتابة رواية « الرأس إيلاس » ، وليس فى ذهنه إلا شيء واحد : إيجاد نفقات جنازة أمه .

ومنذ ١٧٥٦ أعلن چونسون عن مشروعه الأكاديمى الثانى ، ألا وهو إصداره لطبعة جديدة من شكسبير من تحقيقه وتعليقه وجمع لذلك الاشتراكات اللازمة لإصدار الطبعة ولكن يبدو أن ماجمعه كان غير كاف ، لأنه استمر فى ضنكه المالى وقد استغرق إعداد هذه الطبعة الجونسونية نحو تسع سنوات ، وصدرت أخيراً فى ١٧٦٥ فى ثمانية مجلدات ولم يكن جونسون أول محقق لشكسبير فقد سبقه إلى ذلك كثيرون كان أهمهم بنتلى Bentley فى القرن السابع عشر و پوپ Pope وواربرتون Warburton ، فى القرن الثانى عشر ، وقد ساهم كما ساهموا فى تصحيح نصوص شكسبير المغلوطة وجلوا بعض ما فى مفرداته من غموض فى المعنى . وقد منحته كلية ترينتى ، بدبلن درجة الدكتوراه فى القانون عام صدور طبعته من شكسبير ، وجاء تقدير جامعة أكسفورد متأخراً ، فلم تمنحه جامعته الدكتوراه إلا بعد عشر سنوات .

ولكن متاعب چونسون المالية انتهت تماماً قبل صدور طبعته من شكسبير بثلاث سنوات . ففى ١٧٦٢ أبلغ چونسون أن الملك جورج الثالث يرغب فى منحه معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه سنوياً ، فأسقط فى يده . إن قبول هذا المعاش كان بداية عهد استقرار حقيقى فى حياته ، ولكن چونسون هو القائل فى قاموسه الشهير فى تعريف مادة « معاش» Pension « المعاش مبلغ يعطى لأجير من أجراء الدولة مكافأة له على خيانة وطنه » وبالطبع لم يكن هذا هو التعريف الحقيقى للمعاش ، فقد درجت الدولة فى إنجلترا فى زمن چونسون وقبل زمن چونسون على منح معاشات سنوية للنابهين من أبناء إنجلترا تقديراً لما قاموا به من جهود فى خدمة الوطن أو الخدمة العامة أو خدمة الفنون والآداب والعلوم . ولكن تعريف چونسون للمعاش فى قاموسه كان تعليقاً سياسيا ساخراً على فساد الحكم

فى زمنه وتوسع والبول فى إغداق المعاشات على غير المستحقين من أنصاره أو من المتملقين . وكان لجونسون أصدقاء من أصحاب الحظوة فى البلاط مثل اللورد بيوت Lord Bute والفنان العظيم سير جوشوا رينولدز Sir Joshua Reynolds فاستشارهما فى الأمر فأكدا له أن المعاش المعروض عليه منحة من الملك على ما أدى فى الماضى من خدمات للعلم والأدب وليس ثمناً لشىء يمكن أن يطلب منه فى المستقبل ، فاستراح ضميره وقبل المعاش .

وفى ١٧٦٣ تعرف چونسون بأهم رجل دخل محيط حياته ، ألا وهو جيمس بوزويل James Boswell كاتب « سيرة صمويل جونسون » The Life of Samuel Johnson ، الشهيرة التى أصبحت أشهر سيرة كتبت لأديب فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، وربما فى تاريخ كل الآداب . تعرف چونسون على بوزويل مصادفة فى دكان كتبى فى كوفنت جاردن Covent Garden . وكان بوزويل الشاب ابن قاض من نبلاء أسكتلندا يدعى اللورد أوكنليك Lord Auchinleck ، وكان قد أتم دراسته فى جامعة ادنبره ثم فى جامعة جلاسجو ثم نزح إلى لندن ليستمتع بمباهج العاصمة وبفنونها ، وكان حلم حياته أن يقابل كبار الأدباء وأن يكتب شيئاً يبقى ذكره . وكان مفتوناً بكتابات چونسون متحرقاً للقائه ، وفى هذا اللقاء الأول كان چونسون ملك الحديث اللاذع جافاً فى حديثه معه وبرغم ذلك لم ييأس الشاب بوزويل ، بل زاره فى داره بعد أسبوع واستقبله چونسون متهكماً بقوله : « إنى مدين لأى إنسان يزورنى ». وجلس بوزويل بين يدى چونسون يستمع إلى تعليقاته وخواطره كالمسحور فقد كان چونسون سيد المحدثين فى عصره . وما لبث چونسون أن فتح قلبه لبوزويل ، فقد كان يحب صحبة الشباب ، ونشأ بين الرجلين ود صادق فتلازما . وكانا يخرجان معاً للعشاء فى « حانة المايتر Mitre Tavern ويتنزهان معاً على نهر التيمس . وبناء على نصيحة چونسون بدأ بوزويل

يدون يومياته ، وكانت هذه اليوميات فيما بعد هي ذلك الكتاب العظيم الذى دون بوزويل فيه أقوال چونسون بحذافيرها وداخل إطارها عبر نحو عشرين سنة ، ورسم له صورة لا تقل خلوداً عن لوحة سير جوشوا رينولدز له ، فخرج منه چونسون عملاقاً سقط ظله الجسيم على الحياة الأدبية فى إنجلترا فبدا كله من حوله كالأقزام .

الصالونات الأدبية وفن الحديث . هذه كانت سمة الحياة الأدبية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر عصر الأرستقراطية . وحين كان چونسون طالباً فى أكسفورد لمع بذكاء حديثه وذكاء عبارته ، ولكن فقره كان أقوى من ذكائه فانسحب من الجامعة قبل أن يستوفى علومه . وفى لندن لم يكن چونسون من السراة حتى يفتح بيته صالوناً للأدباء ، فجعل عام ١٧٥٠ من حانة إيڤى لين ناديا أدبيا عرف باسم Ivy Lane Club فكان يجلس فى مقعده فى الحانة ومن حوله أصدقاؤه ينصتون لأحاديثه فى الأدب والمجتمع والأخلاق . وفى ١٧٦٤ اشترك چونسون مع سير جوشوا رينولدز ، فى إنشاء أشهر ناد فى لندن باسم « النادى The Club وكان من بين أعضائه الأوائل المفكر الكبير أدموند بيرك Edmund Burke والأديب الكبير أوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith وغيرهما من أعمدة المجتمع المثقف . وقد كانت أعظم لحظة فى حياة بوزويل هى يوم قبوله عضواً فى ذلك النادى بعد مرور تسع سنوات بإصرار من چونسون . كذلك تعرف چونسون فى هذه الفترة على هنرى ثريل Henry Thrale وزوجته مسز ثريل Mrs. Thrale ، واسمها بالميلاد Hester Lynch وعرفت بعد ذلك باسم مسز بيوتزى Mrs. Piozzi لأن هستر بعد أن ترملت فى هنرى ثريل تزوجت من موسيقى إيطالى اسمه « جابرييل بيوتزى » وكان هنرى ثريل من سراة البورجوازية الإنجليزية يملك مصنعاً البيرة ، وكان عضواً فى مجلس العموم عن دائرة سذك Southwark ، وكانت زوجته مسز ثريل من ألمع سيدات المجتمع اللندنى ،

وكان صالونها ملتقى لأذكى العقول وأرقى السلوك . وأصبح چونسون ضيفاً دائماً على آل ثريل ، وخصصوا له غرفة دائمة فى دارهما فى ستريتهام Streatham وأخرى فى دارهما فى سذك . وكانت مسز ثريل ذات أطماع أدبية تكتب يوميات عاشت فى تاريخ الأدب الإنجليزى وتعرف باسم « ثريليانا » Thraliana وهى ككتاب بوزويل أحد مصادرنا الهامة عن الدكتور چونسون وعصره . وحين مات هنرى ثريل باعت زوجته هستر مصنع البيرة بمبلغ ١٣٥,٠٠٠ جنيه ثم باعت دار ستريتهام فى ١٧٨٢ وانتقلت إلى دار فى أرجيل ستريت ، وفى هذه الدار خصصت هستر أيضاً غرفة دائمة لجونسون أقام فيها حتى تزوجت هستر زواجها الثانى من بيوتزى الموسيقى فى ١٧٨٤ ، وهو عام وفاة چونسون . صحبة جميلة دامت عشرين عاماً بين چونسون وآل ثريل عرف فيها معنى الراحة والرعاية والحب والحنان ، والأطباق الشهية تخرج من مطابخ السراة الرهيبة إلى موائدهم العامرة .

ولم يكن چونسون كثير الأسفار خارج رحلاته المتقطعة إلى بلدته ليتشفيلد وإلى أكسفورد وبيرمنجهام. فلما بلغ الرابعة والستين (فى ١٧٧٣) أقنعه بوزويل أن يقوم معه برحلة يزور فيها اسكتلندا وجزرها الغربية ، وقد كان ثمرة هذه الرحلة كتابان : كتاب لجونسون اسمه « رحلة إلى الجزر الغربية » Journey to the Western صدر فى ١٧٧٥ ، وكتاب لبوزويل اسمه « يوميات رحلة إلى جزر الهبريديز » Journal of a Tour to the Hebrides Islands صدر فى ١٧٨٥ بعد وفاة الدكتور چونسون . وكأنما كانت هذه فترة الرحلات فى حياة چونسون فقد خرج أيضاً مع آل ثريل فى رحلتين طويلتين إحداهما فى ١٧٧٤ إلى شمال ويلز ، أما الثانية فكانت إلى فرنسا وكان چونسون يعرف الفرنسية ، ومع ذلك فقد آثر أن تكون لغة التفاهم بينه وبين أساتذة السوربون هى اللغة اللاتينية ، وقد كان چونسون من أعلم العارفين بها فى أوربا قاطبة .

ومن أهم ملاحظاته على الحياة الفرنسية سعة الفجوة بين الأغنياء والفقراء وخلو فرنسا من طبقة متوسطة كبيرة تملأ هذا الفراغ .

وقرب نهاية عمره أصدر چونسون أهم كتاب فى حياته وهو « سير الشعراء الإنجليز » Lives of the English Poets ما بين ١٧٧٧ و ١٧٨١ . هذا الكتاب هو عمدة النقد الأدبى فى القرن الثامن عشر ومنه تستمد أكثر معايير المذهب الكلاسيكى الحديث فى الأدب وفنونه ، وهو عبارة عن أبحاث متفرقة عن شعراء إنجلترا : ملتون Milton ودرايدن Dryden وپوپ Pope وكاولى Cowley وجراى Gray وجيمس تومسون James Thomson ووليم كولنز William Collins وسويفت Swift وكونجريف Congreve وجون جاى John Gay إلى جانب أربعين شاعراً آخرين من عصر جونسون وما قبله أقل حظا من الشهرة الأدبية مثل والر Waller وأكنسايد Akenside وشنستون Shenstone وداير Dyer وماليت Mallet وتيكل Tickell وبارنيل Parnell إلخ . . كان ثلاثة من الناشرين يتلقفون هذه الدراسات ليطبعوها كمقدمات لدواوين الشعراء الإنجليز ، ثم جمعت هذه أخيراً فى كتاب واحد لا يربط أجزاءه إلا وحدة موضوعه .

هذه نبذة عن سيرة الدكتور صموئيل جونسون مؤلف « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » الذى كان فى زمانه أعظم النقاد الإنجليز ، والحاكم المطلق فى دولة الأدب ، يرفع الشعراء بكلمة ويسحقهم بكلمة ، ويصغى الناس لما يقول فى احتشاد شديد . ولم تعرف لندن قبل أوسكار وايلد غير الدكتور چونسون ملأ نواديها وصالوناتها وحاناتها بالأحاديث الرائعة والسخريات البارعة والتأملات العميقة فى الأدب والأخلاق والاجتماع والسياسة .

القاهرة ١٩٧١ — لويس عوض



الفصل الأول

وصف قصر في واد

إلى من يستمعون إلى نجوى الخيال فيؤمنون بها إيمانهم بصوت الحقيقة ، وإلى من يطاردون أطياف الأمل في لهفة وحماسة فيحسبون أن الشيخوخة تؤتي ثمار الشباب وأن الغد يعوض عن حاجات اليوم ، إلى هؤلاء جميعاً أسوق قصة الرأس إيلاس أمير الحبشة .

كان الرأس إيلاس الابن الرابع للإمبراطور الذي ينبع من دولته النيل ، أبو الأنهار ، النيل الذي يجرى بالخصب والنماء دفاقاً سخياً فيملأ العالمين بثمار مصر .

وتبعاً لتقاليد الملوك التي أخذها الخلف عن السلف في بلاد الشمس المحرقة كان على الرأس إيلاس أن يلزم قصراً خاصا يقيم فيه مع سائر أبناء الملك وبناته ، حتى يدعى إلى ارتقاء العرش بحكم نظام الوراثة .

وكان ذلك القصر الذي فرضته حكمة القدماء أو حرصهم على أمراء الحبشة وادياً فسيحاً في مملكة أمهرا أحاطت به الجبال الشم من كل جانب ، وكانت قمم تلك الجبال تتلاقى في المنتصف فيكون منها سقف منيف . ولم يكن للقصر مدخل سوى غار مجوف تحت صخرة ، ولقد اختلف الناس في شأنه فمنهم من زعم أنه من عمل الطبيعة ومنهم من زعم أنه قد بيد الإنسان وقد أخفت باب الغار غابة كثيفة ، أما فتحته التي تفضي إلى الوادي فقد سدها باب حديدي عظيم صاغه

صناع السنين الغابرة ، وقد بلغ من ضخامته أن فتحه وإغلاقه ماكانا ليتأتيا إلا باستخدام آلات خاصة .

وانسابت من جوانب الجبال نهيرات نشرت الخصب والنبت فى الوادى واجتمعت فى بطنه فكانت منها بحيرة سكنتها الأسماك من كل لون وضرب وأمتها طيور الماء . وكلما فاضت البحيرة بمائها انصرف الماء الفائض فى جدول يجرى فى أخدود مظلم بالجبال الشمالية وأخذ ينحدر هادراً يصم الأسماع من هوة إلى هوة حتى يتلاشى صوته نهائياً .

وسفوح الجبال كانت تكسوها الأشجار . وضفاف الجداول كانت تنمقها الأزهار . وكلما هبت من الريح نفحة سقط البخور من الصخور . وفى كل شهر آتت الأغصان أكلها وهوت منها الفاكهة على الأرض . وفى هذه الدائرة الواسعة عاشت صنوف الحيوان آكلة الحشائش والشجيرات أليفها ووحشها فى حمى بالجبال من صنوف الحيوان المفترسة . ففى جانب من الوداى كانت قطعان الغنم والبهم ترعى الأعشاب وفى الجانب الآخر كانت أفراد الحيوان التى يطلبها الصياد تقفز وتمرح على الأرض المبسوطة الخضراء وبين الصخور كانت تثب الجديان وفوق الأشجار كانت تتسلق القردة ، أما الأفيال الوقورة فقد كانت تستجم فى الأفياء واجتمعت النقائض فى صعيد واحد ، ولكن ماكان بينها إلا خيرات الطبيعة ، أما ضرباتها فقد استبعدت من الوادى استبعاداً .

وأمد الوادى المثمر الرحيب أهله بضرورات الحياة أما ترف الحياة وبهرجها فكانا يفدان إليهم بمقدم الإمبراطور فى زيارته السنوية لبنيه . وفى تلك الزيارة كان الباب الحديدى يفتح على أنغام الموسيقا ، وكان كل ساكن من سكان الوادى يسأل فى الأيام الثمانية التى تستغرقها الزيارة أن يقترح ما يشاء لتهوين العزلة فى ذلك الوادى ودفع الملل الذى يأتى به الزمن بملء كل فراغ فى أسباب التسلية والترفيه . وما من أمنية أزجيت

إلا وتحققت لصاحبها وكان رجال اللهو وبناته يدعون من أقاصي المملكة ليشيعوا البهجة فى ذلك العيد ، فالعازفون يبثون شجى الألحان والراقصات يعرضن جميل الإيقاع أمام الأمراء لعل ذلك يحبب إليهم الأسر السعيد، ولم يكن يدخل الوادى من أهل الفن إلا المهرة الحاذقون . وهكذا بدت البهجة كاملة والاطمئنان أكيداً لكل قادم جديد ، حتى لقد تمنى القادمون الجدد دوام هذه الحال السعيدة . ولكن لما كان الداخلون لا يؤذن لهم بالخروج لم يدر أحد شيئاً عن السأم القاتل الذى يتملك أهل الوادى ويتبارى المتبارون لدخول ذلك المنفى .

وكان القصر قائماً على رابية تعلو نحو ثلاثين خطوة فوق سطح البحيرة وكان القصر مقسما إلى أفنية أو مربعات كثيرة تتفاوت فخامة ورونقاً تبعاً لمكانة ساكنيها فى المجتمع . وكانت سطوحها تستدير فى هيئة أقباء من حجر جسيم ، والتصق فيها الحجر بالحجر بالأسمنت الذى يزداد متانة على الأيام . ومرت بالقصر الأعصر الطوال فإذا به ماثل يتحدى أمطار المدار وأعاصير الاعتدالين دون حاجة إلى الترميم .

وقد بلغ من اتساعه أن المعرفة الكاملة بجميع أجنحته لم تتيسر لأحد خلا عدداً من الضباط القدامى الذين ورثوا أسرار القصر خلفاً عن سلف ، بل إن تصميمه كان من التعقيد بحيث يوحى بأن واضعه قد تعمد التعقيد ، فقد كان لكل حجرة ممران أحدهما سرى والآخر معروف ، وكان كل فناء متصل بغيره من الأفنية إما عن طريق الطوابق العليا وإما عن طريق يجرى تحت الأرض بين الأجنحة السفلى . كذلك كان بين الأعمدة عدد عظيم فيه فجوات لا يعلم أحد بوجودها ، فجوات أخفى فيها الملوك كنوزهم واحداً بعد الآخر ثم سدوا تلك الفجوات بقطع من رخام لم ترفع إلا فى أقصى حالات الطوارئ . ولقد دونوا تفصيل ما جمعوا من كنوز فى سجل أخفوه ببرج لا يدخله كائن سوى الإمبراطور وفى معيته الأمير وارث العرش .

الفصل الثانى

ضيق الرأس إيلاس بالوادى السعيد

وفى الوادى عاش أبناء الحبشة وبناتها لا يعرفون عن الحياة شيئاً إلا اللذة بعد الراحة والراحة بعد اللذة ، واجتمع من حولهم كل نابغ فى الفن ليحقق لهم المتعة ، وكذلك نعموا بكل ما تنعم به الحواس ، فكانوا يتنزهون فى الحدائق الفيحاء ، وينامون فى قلاع الأمان . وتفنن أهل العلم فى تزيين حالتهم لهم فلم يحدثهم الحكماء الذين يتولون تأديبهم إلا عن بأساء الحياة العامة ووصفوا لهم ما وراء الجبال بأنه أرض النكبات حيث النزاع أس الحياة وحيث يفترس الإنسان أخاه الانسان .

ولكيما يتأكد فى روع الأمراء أن عيشهم رضى كان أهل الفن ينشدون أمامهم كل يوم أغانى موضوعها الوادى السعيد ، ويستثيرون شهواتهم بمختلف الطرق فيقصفون ويعربدون فى كل ساعة من مطلع الفجر إلى مجىء المساء .

وكانت هذه الطرق مثمرة بوجه عام ، فما بدا لأحد من الأمراء أن يوسع أركان دولته هذه إلا الأقلون ، وظلت كثرتهم المطلقة راضية بحالها مقتنعة بأنها تملك كل ما عند الطبيعة وعند الفن من مسرات ، وترثى لحال المساكين الذين حرمتهم الأقدار هذا المعتزل الهادئ وتخال أنهم فرائس فى يد القدر وضحايا فى يد الزمان .

وهكذا أصبحوا وأمسوا كلهم فى غبطة متصلة ، إلا الرأس إيلاس الذى أخذ يتجنب لهوهم وينسحب من حفلاتهم ما إن بلغ السادسة

والعشرين من عمره ، ووجد فى نزهاته الخلوية وتأملاته الهادئة متعة وأى متعة . وكثيراً ما كان يجلس إلى موائدهم التى تحمل أطايب الحياة فينسى أن يتناول منها شيئاً ، وكثيراً ما كان ينهض والأغانى دائرة ثم يسرع إلى حيث لا يدركه صوت الموسيقا ورأى أتباعه انصرافه عن اللذات فحاولوا أن يجددوا فيه الكلف باللذات ، ولكنه كان يتجاهل خدماتهم ويشمئز من دعواتهم ، وراح يقضى اليوم بعد اليوم عند ضفاف النهيرات تظله الأشجار وهناك يصغي إلى الأطيار فى الفنن تغرد ، أو يتأمل الأسماك تلعب فى مجرى الماء ، أو يلقى ببصره على المراعى والجبال التى انتشرت فيها البهم ، فمنها ما كان يأكل الأعشاب ومنها ما كان ينام فى الفىء بين الشجيرات .

ولفت هذا المسلك الشاذ إليه الأنظار . وكان بين حكماء الوادى السعيد حكيم تعوّد منه الأمير حسن الحديث واستراح إلى صحبته ، فتبع الحكيم الأمير خلسة راجياً أن يظفر بسر ضيقه بالوادى وسكانه . ولم يكن الرأس إيلاس يعلم بأن هناك من يراقبه ، فذهب يتأمل أفراد الماعز التى كانت ترعى بين الصخور وأنشأ يوازن بين حاله وحالها . قال : ما الفرق بين الإنسان وبقية ضروب الحيوان ؟ إن كل ما أرى من أفراد الحيوان لها من ضرورات الجسد مثل مالى ، فهى تجوع وتأكل الحشيش وهى تظمأ وترتوى من الجدول . وتقر نفسه بما أكل وما شرب فينام ثم يستيقظ ثانية جوعان يطلب الغذاء ثم الراحة . وأنا كالحيوان أجوع وأظمأ ، ولكن الشبع والرى لا يأتيان بالراحة كما يأتيانه . أنا كالحيوان يوجعنى الجوع ولكن الامتلاء لا يرضينى كما يرضيه . وما بين الأكلة والأكلة يقتلنى السأم والضيق وأتطلع إلى الجوع تطلعاً لعل الجوع يلهب حواسى . إن الطيور تنقر الأعناب أو تلتقط الحب ثم تطير إلى أدواحها ، وعلى أدواحها تقضى أيامها فى سعادة بادية مغردة ألحانها الرتيبة التى لا تتغير . كذلك أستطيع أنا أن أدعو عازف العود

والمغنى ولكن الألحان التى أشجتنى بالأمس تقتلنى اليوم مللا . وأنا لا أجد فى نفسى حاسة واحدة لا ترتوى بما تظمأ إليه ، ومع كل ذلك لا أجدنى سعيداً . فلا شك إذاً أن فى الإنسان حاسة خبيثة لا تجد ما يشبعها فى هذا المكان ، أو لعل به رغبات لا تتصل بالحواس ، ولا سعادة له إلا بإرضاء هذه الرغبات .

وبعد أن فرغ من نجواه رفع رأسه ورأى القمر يشرق فرجع إلى القصر قافلا . وفيما هو يجتاز الحقول ويشاهد الحيوان من حوله قال : « أنتم السعداء يا أفراد الحيوان ، ولا حاجة بكم أن تحسدوا هذا السائر بينكم ، هذا الشجىّ الذى ينوء بحمل نفسه الثقيلة ، وأنا لا أحسدكم على ما أنتم فيه من سعادة ، فما سعادتكم من سعادة بنى الإنسان . إن بنفسى أوجاعا لا تفهمون لها معنى ، فأنا أخاف الألم وإن كنت لا أشكوه ، وإن بدنى ليقشعر لذكرى الشرور الماضيات كما يقشعر لتوقع الشرور الآتيات ، فلا شك أن العدالة الإلهية قد وهبتنا من ألوان السعادة ما يكافئ ألوان الشقاء » .

ومضى الأمير يسرّي عن نفسه بهذه التأملات فى أثناء عودته ، ويزجيها بصوت شاك حقًّا ، ولكن نظرته كانت نظرة المرتاح إلى رجاحة عقله المتعزى عن بأساء الدنيا بخواطره وبإحساسه بدقة تلك الخواطر وبما أصاب من توفيق فى التعبير عنها . واختلط باسم الثغر بأصحاب المهرجان فى ذلك المساء وأخذ من لهوهم بنصيب كبير وسر الجميع لرؤيته على تلك الحال من الغبطة والهناءة .

الفصل الثالث

حاجات المستغنى

وسعى مؤدبه القديم إلى لقائه راجيا أن يشفيه بالنصائح والعظات بعد أن وقف على علة ضجره بالحياة فى الوادى السعيد ، ولكن الأمير كان يرى أن ذكاء هذا الحكيم قد خبا منذ زمن طويل فلم يجد بنفسه ميلا إلى الإذن له بالمثول بين يديه . وقال : « ترى لم يريد هذا الرجل إزعاجى فى وحدتى ؟ ألن يتاح لى قط أن أنسى محاضراته التى لم أتذوقها إلا بجدتها ولن تعود إليها جدتها إلا إذا نسيتها ؟ » ثم دخل الغابة وفى الغابة اطمأنت نفسه إلى خواطره المألوفة ، وقبل أن ينتهى إلى رأى ما أبصر بمطارده يقف إلى جواره وضاق به صدره ، فأوشك أن ينصرف عنه مسرعا ولكنه لم يشأ أن يغضب هذا الرجل الذى كان يجله فى الماضى ولا يزال يكن له الحب فدعاه إلى الجلوس معه على شط النهر .

وتشجع الحكيم الشيخ فأنشأ ينعى ما أصاب الأمير فى الفترة الأخيرة من تحول وإعراض عن ولائم القصر والتماس للخلوات الهادئة ، فأجاب الأمير قائلا : « أنا إن أعرضت عن لذات القصر فما ذلك إلا لأن اللذات لم تعد تلذ لى . وأنا ألتمس الوحدة لأنى شقى ، ولست أحب أن أفسد بشقائى سعادة الآخرين » . فأجاب الحكيم قائلا : « أنت ياسيدى أول من أحس بالشقاء فى هذا الوادى السعيد ، وأرجو أن أوفق إلى إقناعك بأن شقاءك هذا لا مصدر له ، فأنت هنا تنال كل ما يملك إمبراطور الحبشة أن يسبغه على الناس ، وأنت هنا بمأمن من كل خطر ، وأنت هنا لا تعرف عن العمل وبأسائه شيئاً ، ومع ذلك فكل ما حولك

من عمل العاملين وكل ما انتزع من فم الأخطار طوع بنانك . فتلفت حولك تجد كل ما تشتهيه نفسك وإذا كانت جميع حاجاتك مقضية ففيم إذاً شكواك ؟ »

فقال الأمير :

« ولكن هذا بالذات مصدر شقائى ، فأنا شقى لأنى أجد كل حاجاتى مقضية ، وأنا شقى لأنى لا أعلم حقيقة ما تريده نفسى ، ولو أنى علمت بحقيقة ما تريده نفسى لرغبت فيه ، والرغبة تدعو إلى السعى ، ولو قد كنت أسعى لتحقيق شىء أرغب فيه لتبدلت حالى ، وصرت لا أتحرك إلى مغيب الشمس وراء الجبال الغربية ولا أرتجف لمطلع الصباح الذى يفضح سريرة نفسى . وحين أرى الماعز والخراف يطارد بعضها بعضاً تحن نفسى إلى شىء تطارده . أما الآن فلست أجد فرقاً بين ساعة وساعة أو بين يوم ويوم ، وما ذلك إلا لأنى أملك كل ما أشتهيه ، أجل لست أجد بينها فرقاً إلا أن اليوم أشد إملالا من الأمس وأن هذه الساعة أثقل على نفسى من سابقتها . فلتعلمنى باختبارك كيف أقضى نهارى كما كنت أقضيه أيام الطفولة خلىّ البال لا أشعر بفوات الوقت ، فقد كانت الطبيعة يومئذ ترفل أمام عينى كل صباح فى ثوب زاه جديد ، وكل لحظة تعلمنى عن الحياة ما لم أكن أعلمه . لقد نعمت نفسى بما لم تنعم به نفس فهات لى من عندك شيئاً أنشده ولا أجده » .

وعجب الحكيم الشيخ لهذا الداء الجديد ولم يدر بما يجيب ، ولكنه زهد فى الصمت فقال : « لو أنك رأيت ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء لغبطت نفسك على ما أنت فيه من نعيم » . فأجاب الأمير : « لقد أثرت فى نفسى ما تشتهيه ، ولسوف أتطلع إلى رؤية ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء ما دامت رؤيتها شرطاً من شروط السعادة » .

الفصل الرابع

الأمير يدأب على الشكوى والتأمل

وهنا ارتفع صوت النفير معلناً حلول موعد العشاء ، فانتهت المناقشة عند هذا الحد وانصرف الحكيم الشيخ ساخطاً لأن منطقه قد أفضى إلى ما كان يرغب فى منعه بالذات . ولكن سخطه وحزنه لم يدوما طويلا فالسخط والحزن لا يدومان فى الشيخوخة طويلا ، ولعل علة ذلك أننا نستخف بما تعودنا احتماله ويقل اكتراثنا بالناس لأن اكتراث الناس بنا يقل ، أو لعل علته أننا نستهين بالخطوب لأننا نعلم أن يد الموت سوف تمحوها عما قريب .

أما الأمير فقد امتدت خواطره إلى آفاق أرحب ، فما استطاع تهدئة نفسه المضطربة إلا بمشقة . ولقد كان من قبل يرتعد كلما ذكر الحياة المديدة التى قد يحياها . . فطول العمر كان عنده شجى يحتمل على مضض فإذا هو الآن سعيد بشبابه فقد عاد يرى فى طول العمر مجالا للعمل الكثير .

وكان ذلك أول شعاع من أشعة الأمل نفذ فى خياله فألهب فى خديه دم الشباب وأضاف إلى بريق عينيه بريقاً جديداً . وعصفت به الرغبة فى فعل شىء ، ولكنها كانت محض رغبة مبهمة لا تهدف إلى شىء بالذات ولا تجد لنفسها سبيلا إلى التحقق .

وزال عنه وجومه وعاد إلى معاشرة الناس ، فقد كان شأنه شأن من عثر على كنز من السعادة لا يعلم عنه أحد شيئاً ، وكان يرى أن سعادته بكنزه سوف تدوم ما أخفى عن الآخرين سره ، ولذا تعمد الاهتمام

بكل ما يهتمون به من وسائل الترفيه وسعى إلى تحبيب تلك الملاهي إلى أخدانه وهو الذى ينفر منها أشد النفور . ولكن اللذات مهما تعددت لا تشغل وقت الإنسان تماماً ، ولهذا وجد الرأس إيلاس فى يومه متسعاً للانفراد بنفسه والتأمل على النحو الذى يشتهى دون أن يثير شكوك أحد . وخفف ذلك عنه عبء الحياة ، وذهب يرتاد المجتمعات فى إسراف عظيم ، فقد كان يعتقد أن نجاح خطته متوقف على شدة إقباله على تلك المجتمعات . ومن ثم كان يختلى بنفسه فرحاً فقد كان لديه الآن ما يفكر فيه . .

وكان يجد متعته الكبرى فى تخيل ذلك العالم المحجوب عنه ، وكان يتوهم نفسه فى مختلف الظروف ومن حوله شتى الأخطار التى نسجها خياله كما كان يبتكر المغامرات المخيفة ابتكاراً ، ولكن طبيعته الخيرة كانت تنقذه دائماً من براثن الموت وتكشف عن باطل المبطلين وتنتهى بانهزام الظالمين وانتشار السعادة فى قلوب البائسين .

وهكذا قضى الرأس إيلاس عشرين شهراً بين أحلامه هذه ، وقد اشتغل خياله طول الوقت ببناء حياته الجديدة حتى ألهته الحياة الجديدة عن حياة الوحدة التى يحياها ، بل لقد ألهته عن اختراع الوسائل التى يخرج بها من الوادى السعيد ليختلط بأبناء المجتمع .

وقد توهم ذات يوم وهو جالس على شط جدول من جداول الوادى السعيد أنه يرى عذراء يتيمة سلبها عاشق دنىء مالها القليل فمضت تنتحب وتستعطفه أن يعيد إليها ما سلب . وثار الرأس إيلاس لما رآه أيما ثورة وخف لنجدة العذراء فأنشأ يطارد السارق فى لهفة حقيقية ، ولكن الخوف زود الجانى بقوة ليست من صفاته فعجز الرأس إيلاس عن إدراكه برغم ما بذل من جهد عنيف ، ولم يعدل الرأس إيلاس عن الطراد يأساً ، بل عزم على متابعة الجانى حتى يدرك الجانى الإعياء ، وأخيراً وجد نفسه عند سفح الجبل فكف عن عدوه .

وهنا هدأت نفسه وابتسم لما أبدى من حماسة لا تجدى شيئاً ثم رفع بصره إلى الجبل قائلا : « هذا هو الحائل اللعين الذى يردنى عن نيل السعادة ونشر الفضيلة معاً . كم مرة طار فيها خيالى فاجتاز هذه التخوم التى تحد حياتى ، وما حاولت من قبل أن أجتاز هذه التخوم »

وراعه هذا الخاطر فجلس يفكر ، وذكر أن الشمس قد دارت دورتها السنوية مرتين منذ أن اعتزم الفرار من ذلك المعتقل أول مرة . فلكه حزن لا عهد له به ، وذهب يندب ضياع الوقت ويأسى لما فاته من عمل الخير بسبب قعوده . ومضى يقيس ما ضاع من وقت ببقية العمر فقال : « إن الحياة لا تدخل فى حسابها فترة الطفولة الجاهلة ولا فترة الشيخوخة المخرفة ، ونحن نقضى الأعوام الطويلة قبل أن تنضج فينا ملكة التفكير ، كما أن ملكة التنفيذ تخبو فينا سريعاً . وإن الحياة الإنسانية الفعلية لتقدر بأربعين عاماً . أضعت منها الآن جزءاً من أربع وعشرين جزءاً . وما ضاع منى لا شك محسوب علىّ ، فقد ملكته فعلا ، ولكن أى ضمان لى أنى سأحيا عشرين شهراً أخرى ؟ » وعذبه الإحساس بحماقته تعذيباً أليما ، ولم تهدأ نفسه إلا بعد لأى . قال : « إن ما ضاع من عمرى الأول تقع تبعته على حماقة أسلافى أو إجرامهم وعلى تقاليد بلادى وهى سقيمة وإنى لأذكرها بالاشمئزاز ولكنى لا أندم عليها . أما ما ضاع من عمرى بعد أن استنارت روحى بذلك الضياء الجديد ونعمت بتلك السعادة الوجدانية فأنا الملوم عليه وحدى . وما ضاع لا سبيل إلى استرداده ، فقد رأيت الشمس تشرق وتغرب عشرين شهراً متصلة ، وما فعلت إلا أن حملقت كالأبله فى أنوار السماء . إن أفراخ الطير تركت دفء الشمس ولاذت بالغابة وبأطباق الجوزاء ، وكذلك كف الجدى عن الرضاعة وتعلم شيئاً فشيئاً كيف يتسلق الصخور بحثا عن طعامه . وأنا وحدى القعيد الذى لا يتقدم ، وأنا وحدى الجهول قليل الحيلة . ولقد علمنى البدر طبيعة الحياة حين اكتمل فى كبد السماء

أكثر من عشرين مرة ، والجدول الجارى عند قدمى عنقنى على خمولى وما زلت متكئاً أقطف أعناب الخيال ، ولا أتعظ بالأرض المتجددة أمامى أو بالكواكب التى لا تعرف إلا الترحال . عشرون شهراً مضت، فمن ذا يعود بها إلىّ ؟ »

واستبدت به هذه الخواطر الحزينة . وضاعت منه أربعة شهور أخرى جمع فيها أشتات عزمه واستقر فيها رأيه على ألا يضيع من وقته أكثر مما ضيع ، وحدث ذات يوم أن كسرت غادة فنجاناً فسمعها تقول : ما يستحيل جبره لا يستحق أن نحزن عليه . فاتعظ من مقالها واشتدت عزمته .

ووجد الرأس إيلاس أن فلسفتها لا تحتاج إلى تدليل فأنب نفسه على غباوته السابقة ، فما كان يعلم أن كثيراً من الحكم النافعة تأتينا عن طريق المصادفة ، وما تدبر أن عقل الإنسان فى سعيه الجاد وراء الحقائق العليا لا ينتبه إلى الحقائق الساذجة المكشوفة أمامه . وهكذا ندم الرأس إيلاس على ندمه ساعة أو بعضها ، ثم تحول بكل جارحة فيه إلى استنباط وسيلة للهرب من وادى السعادة .

الفصل الخامس

الأمير يتدبر أمر هربه

وكان الرأس إيلاس يحسب أن الهرب من الوادى السعيد سوف يتم بلا عناء ، ولكنه عدل عن رأيه بعد قليل . فقد تلمس طريقه بين الجبال فوجد أن الطبيعة قد أحاطته بأسوار لا يجد أحد سبيلا إلى اختراقها وتلمس طريقه فى الباب الحديدى الذى لم يخرج منه داخل فأدرك أنه حبيس إلى أبد الآبدين . فإذا به يحس إحساس النسر الحبيس ، وإذا هو يتسلق الجبال أسبوعاً تلو أسبوع عله يجد فيها منفذاً تخفيه الشجيرات فما وجد ، ورأى القنن العاليات بواذخ يرتد دونها البصر . كذلك يئس من فتح الباب الحديدى لأن مهرة الصناع قد تفننوا فى إيصاده ، ولأن الديدبان كان يتعاقب على حراسته ليل نهار ، ولأنه كان مكشوفاً لعيون الناظرين فى كل ساعة من ساعات اليوم .

ثم درس الغار الذى تتدفق منه مياه البحيرة ، ورأى جوف الغار فى ضوء الشمس فإذا بالصخور المهشمة تملأ جنباته ، وإذا بالصخور توشك أن تكون متلاصقة تأذن بجريان الماء ولا تأذن بنفاذ الأجسام المتكتلة . فعاد حاسر الرأس حزيناً ولكن اليأس لم يجد إلى فؤاده سبيلا بعد أن تعلم معنى الأمل .

وضاعت من الرأس إيلاس عشرة شهور مضى يبحث فيها بلا ثمرة . ولكن الملل الذى كان يفتك به قد تبخر . فلقد كان يصحو مع الصباح بأمل جديد ولقد كان يحمد لنفسه مثابرتها فى المساء ، ثم يغلبه النوم فينام هنيئاً بعد إعياء النهار . كذلك وجد فى بحثه من المتع ألف

متعة. صرفته عن متاعبه كما صرفته عن أفكاره . كشف عن غرائز الحيوان وخواص النبات ورأى العجائب من حوله تترى فاعتزم أن يتعزى بدراسة هذه العجائب إن خاب قصده فى الفرار . ووجد سعادة عظمى فى أن سعيه وإن لم يؤت ثماره المرجوة قد زوده بأسباب للبحث لا سبيل إلى نفادها .

ولكن فضوله الأول لم يفتر ، فقد استقر رأيه على دراسة أحوال البشر ولزمته هذه الرغبة ولكن أمله تضاءل يوماً بعد يوم . وكف عن دق جدران سجنه ، وانصرف عن طلب الفجوات فقد ثبت فى روعه أن الفجوات لا وجود لها . ولكنه اعتزم ألا ينسى غرضه الأصيل وأن يغتنم أول فرصة تسنح له للخروج من الوادى السعيد .

الفصل السادس

مقال فى فن الطيران

وكان بين رجال الفن الذين اجتذبتهم الحياة فى الوادى السعيد رجل اشتهر بين قومه لدرايته الواسعة بعلم الآلات ، وقد أخذ الناس عنه مخترعات عدة بعضها نافع وبعضها قصد به إلى التسلية وحدها . واشتغل هذا المخترع بتوفير أسباب الراحة والسرور لأهل الوادى . فابتكر عجلة يديرها التيار فترفع الماء إلى خزان ، ومن الخزان يجرى توزيعها على سائر أجنحة القصر . كذلك ضرب مظلة فى الحديقة ، ومن حول المظلة كيّف الهواء باستحداث رذاذ صناعى يحفظ للهواء رقته طول العام . كذلك أقام المراوح فى دغل من الأدغال مخصص للسيدات ، وكانت النهيرات التى تجرى فى الدغل تدير المراوح فتتم تهوية الدغل بانتظام وأقام بعض آلات الموسيقا على أبعاد مضبوطة فمنها ما عزفت أوتاره بفعل النسيم ومنها ما عزفت أوتاره بفعل الجدول السلسبيل .

وكان الرأس إيلاس يزور هذا الصانع من حين إلى حين ، ويسر بما يتعلم عليه من أشياء ، وهو فى ذلك يتوهم أن كل ما يجمعه من معارف سوف ينفعه يوم يخرج إلى الدنيا العريضة . وقصد الرأس إيلاس الصانع ذات يوم ليسرى عن نفسه كعادته فألفاه يصنع عربة تنزلق على الماء ، ووجد أن تصميمها يصلح للسطوح المستوية فتملكه الإعجاب الشديد ورجاه أن يتم صنع العربة السابحة . وسر الصانع من الأمير هذا التقدير المستفيض ، واعتزم أن يظفر لديه بحظوة أعظم فقال : « إن ما رأيت ياسيدى جزء تافه مما تستطيع العلوم الآلية

أن تحققه ، ولقد كان رأى الثابت دائماً أن الانسان يستطيع اختزال ما ينفعه من وقت طويل فى الانتقال بالسفن والعربات إذا هو استخدم الأجنحة يطير بها ، ورحاب السماء مفتوحة للباحثين أما الجهال والكسالى فنصيبهم الزحف على الأرض .

وما إن سمع الأمير هذا الكلام حتى تجددت فيه الرغبة لتخطى الجبال وبعد أن رأى صنع الصانع خيل إليه أن قريحة هذا المخترع تستطيع أن تجود بما هو أبدع من ذلك ، ولكنه ذهب يلقى الأسئلة تباعاً خشية أن يضلله الأمل الكاذب قال : « يبدو لى أن خيالك أوسع من درايتك لأنى أراك تقص عليّ رغباتك ولا تفضى إلىّ بمعارفك . إن لكل مخلوق مسلكه ومسعاه ، فللطير السماء ، والأرض من نصيب الإنسان والحيوان » .

فأجاب الصانع : « ولكن الماء مملكة الأسماك ، وفى الماء يسبح الحيوان بالفطرة ويسبح الإنسان بفنه ، ومن استطاع العوم كان الطيران فى متناوله ، فما العوم إلا طيران فى سائل شديد الكثافة ، وما الطيران إلا العوم فى سائل قليلها ، فما علينا إلا أن نضبط النسبة بين قوة مقاومتنا وبين كثافة المادة التى نسبح فيها . ولا شك أن الهواء سيحملك لو جددت القوة الدافعة بأسرع مما يلين الهواء تحت ضغطك » .

قال الأمير : « ولكن التدريب على العوم تدريب مجهد ، وأقوى العضلات تضعف به بعد قليل ، وأرى أن الطيران سوف يكون أشد إجهاداً من العوم ذاته ، والأجنحة لا تجدى فتيلا إلا إذا استطاع الإنسان أن يقطع بها أبعاداً لا يقطعها بسباحة » .

فأجاب الصانع : « إن المجهود الأكبر سوف يستهلك فى الارتفاع ن الأرض كما نرى فى حالة الدجاج والأوز مثلا . ولكن بعد أن تتوغل فى السماء تخف جاذبية الأرض ويخف ثقل الجسم شيئاً فشيئاً حتى نصل إلى منطقة يطفو فيها الإنسان دون ميل إلى الهبوط ، وعندئذ لن يحتاج لقوة ينفقها إلا لإحداث الحركة الأمامية ، وهذه تتم بأقل

دافع . وأنت يا سيدى الأمير محب للاستطلاع إلى حد عظيم وتستطيع أن تتصور المتعة التى يجدها فيلسوف من الفلاسفة أوتى جناحين فحلق فى السماء ومضى يتأمل كرة الأرض وهى تدور من تحته دوراناً متصلا وتعرض عليه بدورتها اليومية جميع الأقطار الواقعة فى خط العرض الذى يثبت داخله .. إن هذا المشاهد المحلق سوف يسر سروراً عظيماً بمرأى اليابسة والمحيط والمدائن والصحراوات تنطوى تحت بصره الواحدة بعد الأخرى . نعم ، ولسوف يرى وهو فى أمان الأسواق وميادين القتال والجبال التى يسكنها المتوحشون والبقاع الخصبة التى يسعد أهلوها بثمارها وينعمون بالسلام . ولو استطعنا التحليق لأمكننا أن نتتبع نهر النيل من بدايته إلى نهايته ولطرنا فوق الأمصار النائية واستكشفنا وجه الطبيعة من مشارق الأرض إلى مغاربها .

قال الأمير : « كل هذا تتمناه النفس حقًّا ، ولكنى أعتقد أن التنفس يمتنع على الإنسان فى تلك البقاع ، بقاع التأمل والصفاء . ولقد انتهى إلى علمى أن التنفس يشق على الناس إذا صعدوا جبلا شاهقاً ، وهذه الأخاديد التى تراها يسهل السقوط منها برغم أن ارتفاعها العظيم ينتهى بخفة فى الهواء لا مثيل لها . ومن هذا ترى أن خطر السقوط المفاجئ ماثل أينما صعدت فى منطقة التنفس المحتمل » .

فأجاب الصانع : « محال أن نحقق شيئاً ما لم نذلل جميع الصعاب الواحدة بعد الأخرى . ولو شملتنى برعايتك لجازفت بحياتى فى المحاولة الأولى للطيران . ولقد درست تركيب الطيور بجميع أنواعها ، وأجد أن أنسب جناح للإنسان هو جناح الخفاش لما فيه من طيات متصلة . ولسوف أبدأ العمل على هذا التصميم غداً ، وأرجو أن أوفق قبل انتهاء عام إلى الارتفاع فى الجو حيث لا يدركنى أحد بعيداً عن حقد الحاقدين . ولكنى أشترط على سيدى الأمير أن يكتم السر وألا يسألنى أن أصنع أجنحة لأحد سواه وسواى » .

قال الرأس إيلاس : « ولم تبخل على الغير بهذه المنفعة الجليلة ؟ إن الخبرة الفنية ينبغي أن تكون ثمراتها ملكاً مشاعاً لبنى البشر ، فكل إنسان مدين للآخرين بالكثير ، والواجب يقضى بأن نعطى كما أخذنا » .

فأجاب الصانع : « لو أن الناس كانوا جميعاً صالحين لما ترددت فى تعليمهم الطيران فرداً فرداً . ولكن أى اطمئنان يجده الأخيار إذا استطاع الأشرار أن يغزوهم من الجو ؟ فلا الأسوار ولا الجبال ولا البحار تكفى لرد جيش سابح بين السحب . إن سرباً من برابرة الشمال قويا فاتكاً قد يفد على متن الريح ثم يحط على حاضرة بلد خصيب وينهبها نهباً . بل إن هذا الوادى الذى يعتكف فيه الأمراء ، هذا الوادى الذى يفيض بالسعادة ، قد تنتهك حرمته جمهرة من الهمج العرايا الذين ينتشرون فى أرجاء السواحل الجنوبية » .

ووعد الأمير الصانع بكتمان السر ، وانتظر التجربة وفى قلبه بارق من أمل . وكان يتردد من حين لآخر على الصانع ليقف على ماتقدم من خطوات ، فراعه ما رأى من أفانين كثيرة قصد بها إلى تيسير الحركة وإلى الجمع بين الخفة والقوة معاً . أما الصانع فقد كان يشتد كل يوم إيماناً بأنه سوف يتجاوز النسر فى علاه والعقاب فى جوزاته وانتقلت هذه العدوى إلى الأمير فغدا لا يقل عن الصانع تفاؤلا .

وانتهى العام وإذا بالأجنحة يتم صنعها . وخرج الصانع فى الصباح المحدد لابساً عدة الطيران ووقف فوق رابية صغيرة . ورفرف بجناحيه قليلا ليستجمع الهواء ثم وثب من مكانه ولكنه سقط لفوره فى البحيرة . وأغاثه الجناحان فى الماء بعد أن خذلاه فى الهواء ، فطفا بهما حتى جذبه الأمير إلى الشط ، فخرج إلى اليابسة فى شحوب الموتى يفتك به الذعر والغيظ جميعاً .

الفصل السابع

الأمير يلتقى برجل من أهل العلم

لم يطل حزن الأمير لهذه النكبة فقد كان يعقد الآمال على هذه المحاولة الفاشلة لأن وجوه الفرار الأخرى قد امتنعت عليه ولم يعدل عن عزمه على مغادرة الوادى السعيد حين تسنح أول فرصة .

وتوقف خياله عن نشاطه ، وتضاءل أمله فى الخروج إلى الدنيا حتى تلاشى . وذهب يتعزى عن كل ذلك ما وجد إلى العزاء سبيلا ولكن السخط بدأ يتملكه شيئاً فشيئاً وأنشأ يستسلم لخواطره الحزينة مرة أخرى ولكن فصل الأمطار ، وهو موسمى فى تلك الأقطار ، حل وتعذر بحلوله التجوال فى الغابات .

وطال هطول الأمطار واشتدت غزارتها على نحو لم يألفه سكان الوادى السعيد . فتفجرت الغيوم على الجبال المتاخمة وجرت السيول إلى السهول فى كل جانب من جوانب الجبال ، حتى ضاق الغار بالماء المتراكم . وفاضت البحيرة فأغرق شطئانها الماء وامتد الطوفان إلى مستوى الوادى بأكمله ، ولم تعد العين ترى من معالم الوادى إلا القصر والربوة التى ينهض عليها وبقعاً متفرقة من أراض عاليات . وهجرت المراعى قطعانها واعتصمت بالجبال ، وكذلك اعتصم بالجبال وحشى الحيوان .

ولزم جميع الأمراء القصر بسبب الفيضان واكتفوا بأسباب اللهو المنزلية . واستوقف انتباه الرأس إيلاس قصيدة رواها شاعر يدعى عملاق موضوعها الحياة الإنسانية وأحوالها المختلفة ، فأمر الأمير الشاعر بأن يمثل بين يديه فى جناحه الخاص وسأله أن ينشده قصيدته للمرة الثانية

ثم تبسط معه فى الحديث ووجد بعض السعادة فى أنه قد عثر على رجل يعرف طبيعة الحياة معرفة تامة ويستطيع أن يصورها هذا التصوير الماهر . وسأل الأمير الشاعر ألف سؤال وسؤالا ، عن أشياء كان ينبغى أن يعرفها لأنها مألوفة وساذجة ، ولكن سجنه فى الوادى السعيد منذ طفولته قد جعل منها أسراراً مغلقة . ورثا الشاعر لجهله واطمأن إلى فضوله وذهب يسرى عنه يوماً بعد آخر بكل جديد وبكل نافع من ألوان المعرفة ، حتى لقد ضاق الأمير بحاجته إلى النوم ، وصار يترقب مطلع الصباح لتتجدد به مسراته .

وفيما كانا يجلسان معاً أمر الأمير الشاعر عملاقاً أن يسرد عليه قصة حياته ، وأن يحدثه عما دفعه إلى الوادى السعيد أو جذبه إليه ليختم حياته بين أسواره . وبدأ عملاق فى سرد قصته ، ولكن الرأس إيلاس جاءته دعوة إلى حفل موسيقى فكظم فضوله حتى الليل .

الفصل الثامن

قصة عملاق

انتصف الليل قبل أن تهدأ الموسيقى وتنسحب الأميرات ، ففى المناطق الاستوائية يكون اللهو والسمر فى الليل وحده . وبعد ارفضاض الحفل استدعى الرأس إيلاس صاحبه وسأله أن يبدأ فى سرد قصة حياته فقال عملاق :

« ولدت فى مملكة جوياما بالقرب من الينبوع الذى يخرج منه النيل ، وكان أبى تاجراً ثرياً يجرى تجارته بين موانئ البحر الأحمر وداخلية الأقطار الأفريقية . وكان أميناً مقتصداً مجداً فى عمله ولكنه برغم ذلك كان خسيس الطبع محدود الإدراك لا رغبة له فى الحياة سوى جمع المال ، وكان يخفى ماله عن العيون خشية أن يجور عليه حاكم الإقليم » .

فقال الأمير : « لا شك فى أن أبى يهمل فى أداء وظيفته إذا كان فى بلاده رجل يجور على مال الغير . أولا يعلم أن الملوك مسئولون عما يحدث فى بلادهم من ظلم وجور ؟ لو أنى كنت إمبراطوراً لحميت أحقر حقير فى دولتى من ظلم الظالمين ، وإن دمى ليغلى حين أسمع بتاجر لا يستطيع أن ينعم بما كسب من ربح حلال مخافة أن يسلبه ماله ذوو السلطان . إلىّ باسم هذا الحاكم حتى أوقف الإمبراطور على جرائمه » .

أجاب عملاق : « إن حميتك ياسيدى الأمير أثر من آثار نفسك الفاضلة التى تثور بوحى من شبابك ، ولسوف يأتى حين تبرئ فيه أباك مما تلومه الآن عليه ، ولعل صدرك يضيق يومئذ بشكايات الشاكين

لمثل هذا الحاكم الغاصب . إن الظلم فى بلاد الحبشة نادر الوجود والظالمين يؤخذون بالشدة أينما وجدوا . والإنسانية لم تهتد بعد إلى نوع من أنواع الحكومة يقضى على قسوة القساة قضاء تاماً . إن الحكم بمدلول الكلمة يفرض القوة فى فريق من الناس والخضوع فى الفريق الآخر . والإنسان يطغى من حين لآخر كلما ملك القوة . ويقظة قاضى القضاة قد تنفع فى رفع الكثير من الجور، ولكنها لن ترفع الجور كله ، فقاضى القضاة لا علم له بكل ما يرتكب من جرائم، وقاضى القضاة لا يستطيع أن يدين إلا بعض المذنبين » . .

قال الأمير : « هذا ما لا أفهمه ، ولكنى أوثر أن أستمع إلى بقية قصتك عن أن أجادلك فى أصول الحكم ، فامض فى حديثك » .

فمضى عملاق فى حديثه يقول : « كان أبى يعتزم أن يزودنى بالعلم الذى يؤهلنى لممارسة التجارة وحدها . وحين لاحظ فىّ قوة الذاكرة وسرعة الفهم ذهب يمنى نفسه ويمنينى بمستقبل عظم فى عالم التجارة وتنبأ لى أكثر من مرة أنى سوف أكون أغنى أغنياء الحبشة » .

قال الأمير : « وفيم كان طلب أبيك للمزيد من المال ؟ أما قلت إنه ملك منه أكثر مما يستطيع أن يظهر الناس عليه وأكثر مما يستطيع أن ينعم به ؟ إنى لا أميل إلى التشكك فى صدق ما تقول ، ولكنك تناقض نفسك والحق لا يستقيم مع التناقض » .

أجاب عملاق : « إن الحق لا يستقيم مع التناقض فى الواقع ياسيدى الأمير ، أما فى دنيا الإنسان فالتناقض قد لا يتعارض مع الحق . ثم إن التباين يختلف عن التناقض . وأبى يطلب المزيد من المال ليزداد بذلك اطمئنانه فى حياته المستقبلة. ومهما يكن من شىء فالإنسان بحاجة إلى أمل يدفعه إلى العمل فى الحياة ، ومن توافرت له حاجاته الحقيقية اصطنع أحلامه فى عالم الخيال » .

قال الأمير : « فهمت ما ترمى إليه وأعتذر لك عن هذه المقاطعة »

ومضى عملاق فى قصته يقول : « أدخلنى أبى المدرسة وهو يضع فىّ هذا الرجاء ولكن ما إن تذوقت المعرفة ونهلت من نبعها حتى استصغرت نفسى المال وجامعيه ، ولم أعلن لأحد عن حالى بل اعتزمت سرًّا أن أخيب رجاء أبى فىّ ، وذهبت أرثى لضيق أفقه . وهكذا بلغت العشرين من عمرى قبل أن يسألنى أبى أن أرحل وراء التجارة وكنت قد تعلمت فى المدرسة آداب بلادى وفنونها جميعاً ، وقضيت أعوام الطلب سعيداً بما أوتيت من علم يتجدد كل يوم ، ولكنى فقدت احترامى لأساتذتى درجة درجة حين شببت واتسعت مداركى ، فقد وجدتهم لا يختلفون فى شىء عن عامة الناس .

« وأخيراً رأى أبى أن يزج بى فى ميدان التجارة. وإذا به ذات يوم يفتح كنزاً من كنوزه المخبوءة تحت الأرض ويعد عشرة آلاف قطعة من الذهب قائلا : هذا يافتى رأس مالك ، ولقد بدأت حياتى بأقل من خمس هذا المقدار ، وأنت ترى كيف ضاعفته بالجد والادخار . وهذا المال مالك ، زده إن شئت وبدده إن شئت . فلو بددته بالطيش أو الإهمال فلن تجد مالا غيره قبل وفاتى . ولو ضاعفته فى أربعة أعوام أبطلنا تبعيتك لى وغدونا صديقين وشريكين ، فمن حذق جمع المال حذقى له كان ندًّا لى مدى الحياة .

« وهكذا كدسنا أموالنا فى زكائب بين البضائع الرخيصة وحملتها لنا الجمال إلى سواحل البحر الأحمر ، وحين وقع بصرى على رحاب الماء خفق قلبى كأنى أسير يلتمس النجاة ، وامتلكنى فضول هائل واعتزمت أن أغتنم هذه الفرصة لأستطلع أحوال الناس فى الأقطار الأخرى ولأتعلم ما لا يعلمه الأحباش .

« وتذكرت أن أبى قد فرض علىّ زيادة مالى لا بعهد استخلصه منى ، ولكن بوعيد.كنت فى حل من أن أتغاضى عنه ، ولذا انتهى رأيى

إلى إشباع رغبتى الأولى . فمضيت أنهل من ينابيع المعرفة لأطفئ ظمأ الفضول .

« ويسر لى ذلك أن تجارتى كانت مستقلة عن تجارة أبى ، فتعرفت على ربان سفينة من السفن ونزحت إلى بلاد غير بلادى . ولم أكن أطلب شيئاً بالذات من وراء رحلتى هذه ، فقد كان يكفينى من الأسفار أنها تعرض علىّ من المدائن مالم أره من قبل . وهكذا تركت لأبى خطاباً أطلعه فيه على عزمى ، واعتليت ظهر سفينة قاصدة بلاد السورات » .

الفصل التاسع

عملاق يستأنف قصته

« وحين توغلت فى البحر واختفت عن عينى الشطئان تلفت حولى وتنازعنى الرضا والرهبة واتسعت روحى بمرأى تلك الآفاق المترامية فتوهمت أنى لن أعرف الملل بعد ذلك ، ولكن نفسى ما لبثت أن سئمت ما حولها من تشابه مضجر . وعندئذ وبخت جوف السفينة وخلت أن متع المستقبل قد تنتهى جميعاً كما انتهت متعة الحاضر ، أعنى بالملل وخيبة الأمل. ولكنى ذهبت أتعزى بما بين اليابسة والماء من فرق جوهرى ، فما فى المحيط من جدة إلا تعاقب الحركة والسكون ، إن كان هناك تعاقب ، أما الأرض فوديانها وجبالها وصحاريها وحواضرها تشغل البال طرًّا ، وفى الأرض نلتقى بأناس عاداتهم مختلفة وآراؤهم متضاربة لذلك رجوت أن يعوضنى الناس بتباينهم عما قد أجده فى الطبيعة من تكرار ممجوج .

« وهدأ بالى بهذه الخواطر ، وذهبت أسرى عن نفسى فى أثناء الرحلة آناً بالاستفسار من البحارة عن فن الملاحة ، فقد كنت لا أدرى عنه شيئاً ، وآناً بإعداد نفسى لا ستقبال المواقف المختلفة حين أبدأ حياتى الجديدة ، وهى مواقف كلها من عمل الخيال .

« وأوشكت متعتى فى رحلتى أن تنفد ، ولكن سرعان ما رست بنا السفينة فى سورات ، وفى سورات استرددت مالى وابتعت بعض السلع التى تعين المرء على الظهور ثم انضممت إلى قافلة كانت تهدف إلى داخلية البلاد . ولسبب لا أعلمه قدر رفاق فى السفر أنى من أهل

اليسار واستدلوا على جهلي بما كنت ألقيه من أسئلة وبما كنت أقوله من عبارات الإعجاب بكل ما أراه ، فعدونى غرًّا ينبغى أن يتعلم من تجاريب الحياة شيئاً كثيراً ، وأحلوا للناس خداعى لأن العلم لا يؤخذ بالمجان ، فتركونى لرحمة الخدم والموظفين يستنزفون مالى ما وجدوا إلى استنزافه سبيلا ، ونهبنى الناهبون تحت أبصارهم فلم يحركوا ساكناً لإغاثتى وما جنوا من خسارتى شيئاً إلا فرحتهم بما يصيب المغفل من محن ورضاهم بأنهم من المجربين » .

قال الأمير : « تريث برهة ياعملاق ، فما كنت أحسب أن هذا الجنون من صفات الإنسان . فكيف يؤذى رجل رجلا وهو لا ينتفع بأذاه ؟ وأنا أفهم اغتباط المجرب بتجاربه إذا صادف غرًّا أحمق ، ولكن جهلك كان وليد المصادفة وحدها فهو ليس بجريمة ولا بحماقة وليس فيه ما يدعو إلى اعتزازهم بعلمهم ، ولقد كان يستوى لديهم أن ينقذوك بعلمهم أو أن يبخلوا به عليك ، فلم اختاروا سبيل الضرر؟ » .

أجاب عملاق : « إن الكبرياء والفظاظة رفيقان متلازمان ، والمستكبر يرضى بأخس منفعة تأتيه ، وسعادة الحساد لا تتم إلا بشقاء الآخرين . ولقد كان ذلك النفر عدوًّا لى فقد نفسوا علىّ جاهى ، ولقد وجدوا لذة فى تحطيمى فهم إذن من البغاة الظالمين » .

قال الأمير : « امض فى حديثك يا عملاق ، فلست أرتاب فى صدق مقالك ، ولكنى أعتقد أنك تخطئ فى تقدير الدوافع » .

قال عملاق : « بلغت أجرا ، حاضرة هندوستان ، فى هذا الركب ، وهى المدينة التى يقيم فيها عادة ملك المغول العظيم . وفى أجرا تعلمت لغة البلاد وبعد شهور قلائل أمكننى أن أتفاهم مع علماء المدينة ، فوجدت بعضهم يميل إلى التحفظ والكآبة ووجدت رحابة صدر وإقبالاً على الحديث فى الآخرين . ووجدت منهم من ضنوا على الناس بعلمهم

الذى أضناهم اكتسابه ، ووجدت منهم من رأوا فى تهذيب الغير غاية المعرفة .

« وكان مؤدبى مؤدب الأمراء الصغار ، وقد التفت لجدى واجتهادى حتى قدمنى إلى الإمبراطور واصفاً إياى أنى رجل قل فى العلم نظيرى . وسألنى الإمبراطور كثيراً عن بلادى وعن أسفارى ، ولقد انصرفت من حضرته عاجباً لحكمته النادرة وطبعه النبيل ، وإن كنت لا أذكر الآن قولا من أقواله ، فذا يعجز عنه الرجال العاديون .

« وعظمت حظوتى حتى لقد لجأ إلىّ أصحابى التجار ملتمسين أن أوصى بهم سيدات البلاط ، وقد عجبت لثقتهم فىّ ورجائهم فى أن أمد إليهم يد العون فأنبتهم فى رفق على ما بدر منهم فى أثناء الرحلة من خيانة لى وتفريط فىّ ، فاستمعوا لتأنيبى فى غير اكتراث ولم يبد عليهم مايدل على الأسف أو الخجل .

« ثم ذهبوا يؤيدون مطلبهم بعرض الرشوة ، ولكنى رفضت ماعرضوا فإذا كان العطف لم يكفنى حافزاً فالمال لم يغرنى من باب أولى وما أحجمت عن مساعدتهم لأنهم أنزلوا بى أذى بل لأحول دون إيذائهم غيرى ، فقد كنت على يقين من أنهم سوف يستغلون ما أنعم به من حظوة فى البلاط فيغشون شراة بضائعهم .

« وبعد أن تعلمت فى أجرا كل ما يستحق التعلم نزحت إلى بلاد العجم حيث شاهدت أطلال حضارة فخمة بائدة ووقفت على أسباب الترف وهى كثيرة هنالك .

ووجدت أن الفرس شعب لطيف المعشر يحب الاختلاط ، وقد وجدت كل يوم فى مجتمعاتهم مجالا لدراسة أخلاقهم وأطوارهم كما وجدت مجالا لدراسة الطبيعة الإنسانية فى وجوهها المختلفة .

« ومن بلاد العجم انتقلت إلى بلاد العرب حيث رأيت أمة راعية

ومحاربة فى آن واحد ، يعيش أبناؤها فى تنقل مستمر ولا يملكون من موارد الثروة إلا أغنامهم وأبقارهم ، ولقد عاشوا فى جهاد متصل مع بقية شعوب الأرض ، برغم أنهم لم يغمطوا الناس أشياءهم أو ينفسوا عليهم متاعهم » .

الفصل العاشر

عملاق يستأنف قصته : فى الشعر

« وأينما حللت وجدت أن للشعر المقام الأول بين معارف الإنسان ووجدت أن الناس يحملون له من الاحترام ما يحملونه للطبيعة الملائكية . ومع ذلك فإنى أعجب أشد العجب إذ أرى إجماع الناس على أن قديم الشعر خير من حديثه . ولست أدرى ما دفعهم إلى كل ذلك ، أهو أن تذوق الشعر يتم لأول وهلة على حين تكتسب بقية معارف الإنسان شيئاً فشيئاً ، أم أن شعر الأولين فى كل أمة قد أدهش أبناءها بما فيه من جدة فقدروه ثم دام له هذا التقدير بالتقليد، وهو التقدير الذى ما أصابه إلا مصادفة ، أم أن الشعراء القدامى بحكم سبقهم فى سلسلة الحياة قد استأثروا بما يستحق الوصف سواء فى الطبيعة أو فى عواطف الإنسان أو فى قصص الحياة وهى جميعاً ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان ، فلم يتركوا لأخلافهم مجالا لشىء إلا ترديد ما رووه من وقائع وتضمين ما ابتكروه من أخيلة . ومهما تكن العلة فالملاحظ أن القدماء قد ملكوا ناصية الطبيعة وأن المحدثين قد ملكوا ناصية الفن ، والمعروف أن للأولين السبق فى القوة والابتكار وأن للمتأخرين السبق فى الرقة والأناقة .

« ولقد كنت أود أن أضيف اسمى إلى قائمة الشعراء فدرست الشعر الفارسى كله والشعر العربى كله ، واستظهرت المجلدات المعلقة فى جامع مكة؛ ولكنى سرعان ما أدركت أن الشاعر الفذ لا يعتمد على التقليد . ودفعتنى رغبتى فى الإجادة إلى الانصراف عن آثار الشعراء والاهتمام بدراسة الطبيعة والحياة والتمست فى الطبيعة إلهامى والتمست فى الأحياء

جمهوري : وما استطعت أن أصف ما لم أره ، وما رجوت أن أحرك مشاعر قوم لم أفهم مصالحهم وأفكارهم .

« ولما اعتزمت قرض الشعر اختلفت نظرتي للأشياء واشتد انتباهي واتسعت أمامي الآفاق فبت أكترث لكل شيء مهما بلغت تفاهته ، وذهبت أرتقي الجبال وأذرع البيد في طلب الأخيلة والتشابيه وثبتت في وجداني كل شجرة في الغابة وكل زهرة في الوادي. وقسمت اهتمامي بالعدل بين ذرا الجبال وأبراج القصور . ومن حين لآخر كنت أتجول بحذاء الجداول وألتفت إلى ما يطرأ على سحاب الصيف من تغير ، فكل مادة تنفع الشاعر في شعره ، وخيال الشاعر ينبغي أن يستوعب صور الجمال جميعاً ومصادر الهول جميعاً ، وأن يألف العظيم الرهيب والصغير الدقيق على السواء ، وأن يختزن في ذهنه مادة لا ينفد تباينها من أشجار الحديقة وحيوان الغاب ومعادن الأرض وشهب السموات ، فكل فكرة تفيد الشاعر في تدعيم الحقائق الدينية أو الحقائق الأخلاقية التي يتحدث عنها الشاعر أو هي تفيده في تنميق هذه الحقائق . وأوسع الشعراء دراية شاعر يجيد الانتقال من فكرة إلى فكرة ومن صورة إلى صورة ويحسن إرضاء قرائه بغريب الإشارات وجديد التعاليم .

« لذلك حرصت على دراسة ظواهر الطبيعة ظاهرة ظاهرة ، وما من بلد زرته إلا وكان له أثر في شعري » .

فقال الأمير : « لا شك أن كثيراً من دقائق الطبيعة والحياة قد فاتتك في سعيك هذا للمعرفة الشاملة ، فلقد عشت عامة حياتي في نطاق هذه الجبال ، ومع ذلك ما من مرة خرجت فيها من القصر إلا رأيت شيئاً لم تقع عيني عليه قبل ، أو لم ألتفت إليه في الماضي » .

أجاب عملاق : « إن وظيفة الشاعر هي أن يدرس النوع لا الأفراد وأن يلاحظ الخواص العامة والمظاهر الواضحة ، فهو لا يعد

فى زهرة التوليب أوراقها أو يصف درجات الخضرة التى يراها فى الغابة وهو يعرض فى تصويره للطبيعة معالمها البارزة الجلية مما يذكر كل ذهن بالأصل الذى نقلت عنه ، وهو يتجاهل الفوارق الدقيقة التى أن التفت إليها فرد أهملها أفراد مؤثراً عليها من الخصائص ما يلتفت إليه كل ذهن منتبه ويلحظه كل جنان ليس الإهمال من صفاته .

« ولكن معرفة الطبيعة بعض وظيفة الشاعر لا كلها : إذ ينبغى عليه أن يعرف كذلك طرق الحياة جميعها . والشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا أحس بما فى هذه الطرق جميعاً من سعادة أو شقاء ، وإلا إذا أدرك ما للعواطف من قوة فى جميع وجوهها وتفاعلاتها . وإلا إذا تتبع ما يطرأ على ذهن الإنسان منذ طفولته الحية حتى هرمه اليائس من تغير تحت ضغط التقاليد المختلفة وبتأثير المناخ أو العادات وهو تأثير عرضى . وعلى الشاعر أن يجرد نفسه من الأحكام الفاسدة والأحكام الموروثة التى يفرضها عليه جيله أو يفرضها عليه بلده ، وعليه أن يهتدى إلى الحق والباطل فى صورتهما المجردة الثابتة ، كما أن عليه أن يغض النظر عما حوله من قوانين وآراء وأن يسمو إلى الحقائق الغيبية العامة التى لا تتبدل مع الأيام . ولذا فإن على الشاعر أن يقنع بما يصيب من صيت محدود وأن يزدرى إعجاب معاصريه شاخصاً ببصره إلى الأجيال التالية ، فهى الحكم العدل . وهو فى قريضه يترجم عن الطبيعة ويشترع لبنى الإنسان ويرسم للخلف سبيلهم فى الرأى والحياة ، لأنه كائن يرتفع على حدود الزمان وقيود المكان .

« وما هذا إلا بعض واجب الشاعر ، فإن عليه أن يتعلم اللغات العديدة والعلوم المختلفة ، كما أن عليه أن يروض نفسه بالمرانة المتصلة على كل رقيق من التعبير وكل حلو من التنغيم ، حتى يكون أسلوبه كفواً لأفكاره » .

الفصل الحادى عشر

عملاق يستأنف قصته . كلمة فى الحج

وحين بلغ عملاق هذه المرحلة من حديثه تملكته الحماسة وذهب يعظِّم من شأن صناعته حتى صاح به الأمير يقول : « كفاك ما قلت عن الشعراء . لقد أثبت لى أن عمل الشاعر ليس فى متناول البشر ، فامض فى قصتك » .

قال عملاق : « نعم ، إن عمل الشاعر أشق ما يكون » .

أجاب الأمير : « إنه لكذلك ، ولهذا فلنؤجل الحديث عنه إلى وقت آخر . قل لى أين ذهبت بعد أن خرجت من بلاد العجم ؟ »

قال الشاعر : « بعد أن خرجت من بلاد العجم طفت بمدائن سوريا وأقمت بفلسطين ثلاثة أعوام حيث تعرفت على عدد عظيم من أهل شمال أوربا وغربها الذين يستأثر شعوبهم بأسباب العلم وأسباب القوة فى هذه الأيام ، فجيوشهم الغازية لا سبيل إلى ردها وأساطيلهم تذل أقصى بقاع المعمورة . وحين قارنت بين أولئك الناس وبين أبناء وطنى وما حوله من أقطار خيل إلىّ أن أولئك الأوربيين قد صنعوا من طينة أخرى . فبلادهم قد حوت كل شىء تتمناه النفس ، وبها ألف فن لم يسمع به إنسان ، وهم دائبون فى جدهم لتوفير وسائل الراحة والمتعة ، وكل ما حرمهم مناخهم منه زودتهم به تجارتهم » .

قال الأمير : « ولكن من أين للأوربيين هذا البأس ؟ وإذا كان ميسراً لهم أن يزوروا آسيا وأفريقيا للاتجار أو للغزو فماذا يمنع الآسيويين والأفريقيين من غزو سواحلهم واستعمار موانيهم ؟ إن الريح التى تعود

بهم إلى بلادهم نحمل الآسيويين والأفريقيين كذلك » .

أجاب عملاق : « إنهم أقوى منا ياسيدى الأمير لأنهم أحكم منا ، والعلم يقهرالجهل لا جدال فى ذلك ، ودليل ذلك أن الإنسان يتحكم فى الحيوان . ولكنى لا أدرى كيف اتفق لهم أن يكونوا أوسع منا علما ، ولا تفسير لذلك عندى إلاأن هذه مشيئة الكائن الأسمى » .

وتنهد الأمير قائلا : « متى يتاح لى أن أزورفلسطين وأتصل بمجمع الأمم هذا . وإلى أن يتحقق هذا الحلم السعيد دعنى أعلل النفس بما ترويه أنت علىّ من أخبار . وأنا أعلم الدافع الذى يأتى بأولئك الناس من أقاصى الأرض ليجتمعوا فى تلك البقعة ، ولا شك عندى أنها مركز الحكمة وملتقى الأتقياء ، وخليق بعقلاء الأرض أن يحجوا إليها بلا انقطاع » .

قال عملاق : « إن من البلاد ما لا يبعث إلى فلسطين إلا نفراً قليلا . فالكثرة المطلقة من المثقفين فى أوربا قد اتفقت على الزراية بالحج واعتباره خرافة من الخرافات » .

قال الأمير : « أنت تعلم كيف حال سجنى دون وقوفى على الآراء المختلفة ، والوقت لا يتسع لسماع حجج الفريقين كلها ، ولا ريب أنك قد وازنت بينها فإلام انتهيت ؟ » .

أجاب عملاق : « قد يكون الحج خرافة وقد يكون عملا حكيما ؛ شأنه فى ذلك شأن كثير من الشعائر الدينية. فكل شىء يتوقف على الأساس الذى انبنى عليه فطول الترحال طلباً للحقيقة ليس من أوامر الكائن الأسمى لأن الحقيقة توجد أينما تلتمس بنية خالصة وتغير المكان لا يضيف إلى تقوى الإنسان شيئاً لأنه يفضى حتما إلى تشتيت الذهن . ولكن الناس يقصدون إلى الأماكن التى حدثت فيها الحوادث المشهودة لزيارتها ، ثم يعودون منها وقد تمثلوا تلك الحوادث تمثلا قويًّا . وهكذا

قد يدفعنا مثل هذا الفضول إلى زيارة البلاد التى نشأت فيها ديانتنا . وإنى لأعتقد أنه مامن إنسان زار تلك المواقع الرهيبة إلا وتأكد فى نفسه اليقين وقيد نفسه بالعهود المقدسة . أما قولهم بأن الكائن الأسمى يستمع إلى صلوات الناس فى مكان ما دون سواه من الأمكنة فهو خرافة من خرافات المتبطلين . ولكن اختبارنا المتكرر قد دلنا على أن من الأمكنة ما قد يؤثر فى تفكيرنا تأثيراً غير مألوف . ومن يعتقد أن رذائله سوف تسهل محاربتها فى فلسطين فقد أخطأ ، ومع ذلك فزيارته للأراضى المقدسة قد لاتكون حماقة من الحماقات. ومن يحسب أنه سينال الغفران عن خطاياه فى الأراضى المقدسة بأيسر مما يناله فى غيرها من البلاد فقد دنس حرم الفكر وامتهن جوهر الدين » .

قال الأمير : « هذه الفوارق من عمل الأوربيين وسوف أتدبرها فى فرصة أخرى أما الآن فحدثنى عن أثر المعرفة كما لمسته . أوجدت أن الأوربيين أكثر منا سعادة ؟ »

أجاب الشاعر : « إن فى العالم من الشقاء ما يلهى كل إنسان عن البحث فى الموازنة بين بأسائه وبأساء الآخرين . ولا جدال فى أن المعرفة باب من أبواب السعادة كما يستدل من رغبة كل ذهن فى أن يوسع معارفه . والجهل جدب وفى الجدب لا ينبت شىء . الجهل فراغ تجلس فيه الروح بلا حراك خاملة لا تجد ما يجذبها . ونحن نسعد بالمعرفة ونبتئس للنسيان دون أن ندرى لذلك سبباً . ولهذا أستخلص أن سعادتنا تطرد باطراد علمنا إذا لم يجد ما يفسد هذا الوضع الطبيعى .

« ونحن حين نتحدث عن أسباب الراحة فى الحياة نجد أن الأوربيين قد سبقونا فى هذا المضمار بمراحل طويلة . فهم يضمدون الجراح التى تضنينا ويشفون الأمراض التى تفتك بنا وتعذبنا رداءة الجو أما هم فيتغلبون عليها . وهم يستخدمون الآلات فى إنجاز أعمالهم الشاقة أما نحن فنستخدم الأيدى . ووسائل الاتصال بين الجهات البعيدة متوافرة عندهم

وهى تقرب بين الناس . وسياستهم تنحو إلى إزالة المتاعب العامة جميعاً ، فهم يشقون الطرق فى الجبال ويقيمون الجسور فوق الأنهار بل إن بيوتهم الخاصة تتوافر فيها الراحة أكثر مما تتوافر فى بيوتنا ، وممتلكاتهم فى حمى من عدوان المعتدين أكثر من ممتلكاتنا » .

فقال الأمير : « لا شك أنهم سعداء بأسباب الراحة هذه ، وإنى لأجد أن أعظم هذه الأسباب نفعاً هى أسباب الاتصال التى تجمع الأصدقاء المفرقين وتيسر تبادل الأفكار » .

قال عملاق : « إن الأوربيين أقل منا بؤساً ، ولكنهم برغم ذلك لا ينعمون بالسعادة فأينما ذهبت وجدت أن الحياة الإنسانية عبء فادح كثير الرزايا قليل النعم » .

الفصل الثانى عشر

عملاق يستأنف قصته

قال الأمير : « أنا لا أسلم حتى الآن بأن السعادة نادرة كل هذه الندرة بين البشر ، وأعتقد اعتقاداً ثابتاً أنى لوكنت أتحكم فى تصريف حياتى لملأت كل يوم من أيامى بأسباب السعادة ، ولتجنبت الإضرار بالغير ولتحرجت من الإساءة إلى الآخرين، ولأغثت كل ملهوف فأنعم منهم بالشكران . نعم لوكنت أتحكم فى تصريف حياتى، لاصطفيت خلانى من عقلاء الناس ولاخترت زوجتى من فضليات النساء فأتقى بهذا أو ذاك الغدر وسوء المعاملة ، ولكان أبنائى بفضل رعايتى ذوى علم وصلاح فيجزوننى فى شيخوختى عما كبدتنيه طفولتهم من عناء . ومن استطاع أن يدعو آلاف الناس الذين غمرهم إحسانه أو عضدهم بقوته فيخفوا إليه منجدين فلا خوف عليه من عدوان المعتدين . وما أخلق الحياة بأن تنساب هادئة بين رعاية الضعفاء وإجلال الناس، وهذا ما نستطيع أن نصل إليه دون حاجة إلى كماليات الأوربيين، فظاهر تلك الكماليات يدل على أنها زائفة لا نافعة . فلننس الأوربيين الآن ولنعد إلى أسفارك أنت ياعملاق » .

قال عملاق : « خرجت من فلسطين واجتزت الكثير من أقطار آسيا . فنى المناطق التى تعرف الحضارة كنت التاجر البائع الشارى وفى جبال المتبربرين كنت الحاج الزائر . وأخيراً هزنى الشوق إلى بلادى لأستريح فى أرض طفولتى بعد طول تجوالى ولأمتع إخوان الصبا برواية مغامراتى عليهم . وكثيراً ما انصرف خيالى إلى رفاقى فى فجر الحياة

فتوهمتهم جالسين من حولى فى مسائها عاجبين لما أقص عليهم من أخبار آخذين بما أزجى إليهم من نصائح .

« ولما اختمرت فى رأسى هذه الفكرة بدأت أضيق بفراق الحبشة وأعد كل لحظة تمضى بعيداً عنها مضيعة لحياتى . وأسرعت إلى مصر ، وفى مصر وجدت ما يستبقينى عشرة أشهر برغم لهفتى إلى وطنى ، فدرست آثار فخامتها الزائلة وتعرفت على أطلال علمها الغابر . وفى القاهرة رأيت خليطاً من جميع شعوب الأرض ، فمن الناس من أمها طلباً للعرفان ومنهم من أمها طلباً للمال ومنها من أمها لينزوى عن قومه وسط جموعها الزاخرة فيحيا الحياة التى يرضاها ، وهؤلاء كثيرون ، ففى حاضرة تضيق بسكانها كالقاهرة يستطيع المرء أن يجمع بين مزايا الحياة الاجتماعية ومزايا العزلة والانسحاب .

« ثم انتقلت من القاهرة إلى السويس ، وركبت البحر الأحمر بحذاء الساحل كله حتى بلغت الثغر الذى أبحرت منه منذ عشرين عاماً قبلها ، وفى الثغر انضممت إلى قافلة دخلت بى أرض وطنى .

« وكنت أنتظر من أهلى وذوىّ أن يستقبلونى بالترحاب ومن أصحابى أن يكرموا وفادتى ، وبقى لى بعض الأمل فى أن أبى قد ينسى كلفه العظيم بالمال ويعتز بولده الذى استطاع أن يشرف أمته ويسعدها . ولكن سرعان ما أدركت أنى كنت واهماً فيما رجوته ، فقد وجدت أن أبى قد مات بعد رحيلى بخمسة أعوام وأن إخوتى قد اقتسموا ماله وانتقلوا إلى مقاطعة أخرى ، وأن الكثرة المطلقة من خلانى قد صرعتهم يد الردى ، أما من بقى منهم ففريق كاد أن ينسانى وفريق اشمأز من مسلكى حاسباً أنى قد تطبعت بطباع أجنبية فاسدة .

« ولم أبتئس لكل ذلك ، فمن تعوّد تقلبات الأزمان والأوطان لا يبتئس . وتناسيت بعد قليل ما صادفت من خيبة أمل ، وتقدمت إلى أشراف المملكة فأفسحوا لى مكاناً فى موائدهم واستمعوا لقصتى ثم

صرفونى إلى غير رجعة وفتحت مدرسة ولكن التعليم حرم على. ورأيت آخر الأمر أن أعتكف فى دارى وألتمس الحياة الهادئة ، وتقدمت لخطبة فتاة كانت ترتاح إلى حديثى ولكنها رفضت الزواج منى لأن أبى كان من طبقة التجار .

« وأعيانى مالقيت من إعراض متكرر فعزمت آخر الأمر أن أنزوى من العالم وأن أستغنى جملة عن آراء الغير ونزواتهم . وانتظرت اليوم الذى يفتح فيه الوادى السعيد أبوابه لأودع دنيا المخاوف والآمال . فلما حل اليوم تقدمت بما عندى من فن فحاز الرضا وأسلمت نفسى مغتبطاً للعزلة الدائمة » .

قال الرأس إيلاس : « وهل وجدت أخيراً السعادة التى تنشد ؟ قل ولا تتحفظ فى الكلام . أراض أنت بحالك الآن ، أم تراك تحن إلى البحث والتجوال من جديد ؟ إن أهل هذا الوادى راضون بنصيبهم جميعاً ، وهم يستقدمون غيرهم كل عام فى زيارة الإمبراطور ليشاركوهم ما هم فيه من سعادة » .

أجاب عملاق : « إليك بالحق الصراح أيها الأمير العظيم . مامن أحد بين أتباعك لا يلعن اليوم الذى دخل فيه هذا المعتكف ، وأنا أقلهم تعاسة ، لأن رأسي يزخر بالصور والأفكار أستعيدها وأقلبها كيفما شئت ، وحين أحس بالوحشة أجدد فى نفسى ما تعلمته فى زمانى وكدت أن أنساه وأستعرض حوادث حياتى الماضية . ولكن يؤسفنى آخر الأمر أن أذكر أن كل ماتعلمته من عظات قد غدا لا نفع فيه وأن كل ما عرفته من لذات لن يعود . أما غيرى من أهل هذا الوادى فيعيشون فى الحاضر لا سواه تنخر فيهم الشهوات الخبيثة أو يضرب فى نفوسهم الغبية فراغ أبدى » .

قال الأمير : « وماذا تكون هذه الشهوات عند قوم لا تنافس بينهم على شىء ؟ إننا نحيا هنا حياة يبطل فيها العجز والحقد . . والملذات

فيها ملك للجميع مشاع فلا مجال إذن للتحاسد » .

قال عملاق : « قد يكون متاع المادة ملكاً بيننا مشاعاً، أما التقدير وأما الحب فلا سبيل إلى امتلاكهما على الشيوع . فلا بد أن بيننا من يكتسب رضا الآخرين أكثر من سواه ، ومن يحس بأنه محتقر مزدرى يحسد الغير على الدوام، ومما يزيد من حسده ونقمته أن يُلزم بالحياة بين محتقريه ومزدريه طوال عمره. وإنك لتراهم يعملون على اجتذاب الغير إلى واديهم برغم إحساسهم ببشاعته ومثل هذا الإغراء لا يصدر إلا من حاقد يعلم أن بؤسه أبدى.إنهم يضيقون بأنفسهم وأن كلا منهم ليضيق بأخيه ولذا تراهم يستريحون كلما أقبل عليهم فوج جديد . فهم ينفسون على الأحرار الحرية التى فقدوها بطيشهم وحماقتهم ، وأعذب مناهم أن يروا أهل الأرض طرًّا سجناء مثلهم يتعذبون .

« أما أنا فبرىء من هذا الذنب ، فما من أحد يستطيع أن يزعم أنى أغريته على ولوج هذا المعتقل . وإنى لأرثى لحال ذلك الحشد البائس الذى يسعى كل عام إلى الأسر مختاراً ، فليت من حقى أن أحذرهم من هذا المصير المشئوم » .

قال الأمير : « عملاق ياصديقى، سوف أكشف لك عن طويتى بإخلاص تام . لقد فكرت من قبل طويلا فى الفرار من الوادى السعيد، ولقد بحثت فى جباله عن منفذ واحد ولكنى وجدت أن أسواره لا تاين، فأرشدنى إلى وسيلة أفتح بها أبواب سجنى ولتكن رفيقى فى فرارى ورائدى فى جولاتى وشريكى فى قسمتى ونصيبى والموجه الأوحد لى فى تقرير المصير » .

فأجاب الشاعر : « إن هربك ياسيدى أمر شاق ، ولقد تندم على فضولك بعد حين قليل . أنت تتوهم الدنيا ناعمة هادئة كمياه الغدير فى هذا الوادى ولكنك ستجدها بحراً عاصفاً متلاطم الأمواج دواماته

تهلك السائحين . ولسوف يغمرك آناً طوفان العنف ولسوف ترتطم آناً بصخور الغدر ، ولسوف تذهب نفسك حسرات على هذا المرفأ الهادئ حين ترى ظلم الظالمين وخداع المخادعين وقلق الحيارى وشقاق المتنافسين ، ولسوف تزهد فى الأمل لتأمن من الخوف . »

قال الأمير : « لاتحاول أن تثبط من عزمى ، فلهفتى لرؤية ماقد رأيته عظيمة ، ومادمت أنت تضيق بالوادى فلا جدال أن حياتك الماضية كانت أسعد من حياتك الحاضرة . ومهما تكن نتيجة هذه التجربة فقد صح عزمى على أن أشهد بنفسى أحوال الناس ثم أتدبر أمرى وأقرر مصيرى » .

قال عملاق : « سوف تجد ياسيدى الأمير أن نصحى لك أقل الحواجز حيلولة دون تحقيق ما تتمنى . ولكن إذا كنت صادقاً فى عزمك فلا تيأس ، فما يعز على القدرة والمثابرة إلا أمور قليلة » .

الفصل الثالث عشر

الرأس إيلاس يهتدى إلى وسيلة للفرار

ثم صرف الأمير صفيه ليستريح ، ولكن قصص العجائب التى سمعها بلبلت خواطره ، وأدار برأسه تلك القصص وأعد ما لا يحصى من الأسئلة ليطرحها عليه فى الصباح.

وزايله قلقه إلى حد عظيم ، فقد ظفر بصديق يستطيع أن يشركه فى خواطره ، صديق له من التجارب ما يستضىء به الأمير لتحقيق رغبته فى الفرار . وخفف ذلك كثيراً من لوعته الصامتة . وبدا له أن الوادى السعيد ذاته يمكن احتماله بمعرفة هذا الصديق وكانت أقصى أمانيه أن يتمكن من جوب العالم فى معيته .

وبعد أيام انطلق الماء من الغار المسدود وجفت الأرض . وخرج الأمير ومعه عملاق يتريضان ويتبادلان الحديث بعيداً عن عيون الآخرين وكان الأمير دائم التفكير فى سجنه ، فما إن مرا بالباب الحديدى العظيم حتى خاطبه قائلا مهموماً :

« لم خلقت قوياً . ولم خلق الإنسان ضعيفاً ؟ »

فأجاب رفيقه : « إن الإنسان لم يخلق ضعيفاً ، فالمعرفة تقهر القوة ، وإن العالم بطبيعة الآلات ليسخر من القوة ، وإنى لأستطيع أن أفتح هذا الباب ولكنى أخشى عيون الرقباء ، فلا بد من التفكير فى وسيلة أخرى » .

وفيما كانا يمشيان بجوار الجبل لاحظا أن الأرانب التى أخرجها

المطر من وجارها قد احتمت بالشجيرات وحفرت لنفسها من خلفها حفراً ترتفع فى خط مائل .

قال عملاق : «كان القدماء يرون أن عقل الإنسان قد استرشد فى كثير من مبتكراته بسلوك الحيوان ، فلا غضاضة فى أن نتعلم عن الأرانب شيئاً . وقد ننجح فى الهرب إذا اخترقنا الجبل فى نفس الاتجاه . ولنبدأ حيث تشرف القمة على المنتصف ولنحفر طريقنا فى خط مائل إلى أعلى حتى نخرج من وراء القمة» .

وحين سمع الأمير هذا الرأى أضاءت عيناه فرحاً ، فقد كان تحقيقه ميسوراً ونجاحه أكيداً . وبادرا إلى العمل فخفا مبكرين فى الصباح التالى ليختارا المكان الملائم للتجويف . وشقا طريقهما بين الصخور والأعشاب بمشقة مضنية ولكنهما رجعا دون أن يوفقا إلى بقعة صالحة . كذلك كانت الحال فى اليوم الثانى وفى اليوم الثالث ، ولكنهما عثرا فى اليوم الرابع على كهف صغير مختبئ وراء دغل صغير فقرر قرارهما على اختياره .

وجاء عملاق بالأدوات الصالحة لكسر الأحجار ونقل التراب ، وفى اليوم الذى يليه بدأ العمل بهمة ونشاط لم يبدياها من قبل . ولكن سرعان ما أرهقهما المجهود فجلسا على الأعشاب يلهثان . ولاح اليأس فى وجه الأمير لحظة فقال له رفيقه :

«سوف نعتاد العمل بالمثابرة يا سيدى ، ولو قد رأيت الشوط الذى قطعناه بدت لك النهاية قريبة لا ريب فيها . إن الأعمال العظمى ليست ثمرة القوة بل ثمرة للاجتهاد . إن ذلك القصر قد أقيم بأحجار متفرقة ، ومع ذلك فهو شاهق منيف . وإن من يدأب على السير ثلاث ساعات كل يوم يقطع فى سبعة أعوام بعداً يعادل محيط الكرة الأرضية .

وعاد إلى العمل يوماً بعد يوم ، وسرعان ماوجدا فى الصخرة شقاً أمكنهما أن ينفذا فيه مسافة طويلة بغير عناء كبير . واستبشر الرأس

إيلاس خيراً بهذا التوفيق . فقال عملاق : « لا تستسلم للآمال أو للمخاوف بل الزم حدود العقل في انتظارك للأمور . ومن يتيمن بما يصادفه من دلائل اليسر لا بد أن يتطير لما يصادفه من عسر بعد ذلك ، وتحكمت في حياته الخرافات . وكل ما يمهد لنا السبيل ليس مجرد فأل بل هو سبب من أسباب النجاح . وهذا الذى وجدنا مصادفة سارة تشحذ العزم القوى. وكثير من أمور الحياة يصعب تصميمه ولكن تنفيذه سهل يسير » .

الفصل الرابع عشر

الرأس إيلاس وعملاق يفاجآن بزيارة غير منتظرة

وبلغا فى سعيهما منتصف الطريق فتعزيا عن كدحهما بدنو تحررهما . وفيما كان الأمير يخرج من النفق لاستنشاق الهواء النقى إذا به يجد أخته نكاية تنتظره عند فم النفق . فاستفاق لما رأى ثم تبلبلت خواطره وخشى أن يصارحها بحقيقة الأمر ولكنه أحس بأن الكتمان لا يجدى شيئاً وبعد لحظات انتهى رأيه إلى أن يثق بوفائها فأفضى إليها بكل شىء دون تحفظ ، راجياً منها أن تصون السر .

قالت الأميرة : « لا تحسب أنى جئت لأتجسس عليك . فلقد لاحظت منذ أيام عديدة أنك تسير مع عملاق إلى هذه البقعة بالذات كل يوم ، وما ظننت إلا أنكما تلتمسان فيئاً رطيباً أو دغلا عاطراً لا تجدانه فى مكان آخر ، وما سعيت إليكما إلا للتحدث إليكما . ولكن ما دمت قد وقفت على سركما مصادفة فأذنا لى أن أنتفع بما وقفت عليه وأنا مثلكما قد سئمت الحياة فى هذا السجن المحصور ، وليست رغبتى فى اختبار شئون الدنيا بأفراحها وأتراحها بأقل من رغبتكما . اسمحا لى أن أهرب معكما من هذا الهدوء الممجوج ، فلسوف يغدو هذا الهدوء أثقل على فؤادى مما هو الآن بعد أن تمضيا عنى . إن فى إمكانكما أن تأبيا علىّ اصطحابكما ، ولكن ليس فى وسعكما أن تمنعانى من اقتفاء أثركما »..

وكان الأمير يحب نكاية أكثر من حبه لأخواته الأخريات ويميل إلى إجابتها إلى ماتطلب ، ولقد أسف لأنه لم يدعها مختاراً إلى الاشتراك

فى مجازفته . وقر الرأى على أن تخرج نكاية معهما من الوادى السعيد ، وإلى أن يتيسر لثلاثتهم ذلك اتفقوا على أن تقف الأميرة ديدباناً تراقب القاصدين إلى الجبل .

وأخيراً فرغا من عملهما وشاهدا الضوء من وراء الرابية ، وخرجا إلى قمة الجبل فأبصرا النيل يجرى من تحتهما ضيقاً متعرجاً .

وتلفت الأمير حوله فرحان جذلا ، واشتغل خياله بما سوف يجنيه فى أسفاره من متع ، وطارت خواطره فتجاوزت ملك أبيه . أما عملاق فقد كان برغم سروره بالنجاة أقل من الأمير انتظاراً لمتع الدنيا ، فقد عرفها من قبل وملّها نفسه .

وكانت سعادة الرأس إيلاس بالآفاق الرحيبة سعادة عظيمة حقًّا ، حتى لقد تعب عملاق فى إقناعه بالعودة إلى الوادى . وأعلن الأمير للأميرة أن الطريق أمامهم مفتوح ، فلم يبق إلا أن يعدوا العدة للرحيل .



الفصل الخامس عشر

الأمير والأميرة يخرجان من الوادى ويريان عجائب الدنيا

وحمل الأمير والأميرة من الجواهر ما يأتيهما بالمال الكثير كلما هبطا مكاناً فيه اتجار ، وأرشدهما عملاق إلى تخبئة تلك الجواهر بين طيات ثيابهما . وليلة اكتمل البدر الثانى خرج ثلاثتهم من الوادى ، وكان يتبع الأميرة صفية من صفياتها لم تكن تدرى أين المتجه .

وشقوا طريقهم فى الفجوة ثم أنشأوا يهبطون الجانب الآخر من الجبل . وأجالت الأميرة ووصيفتها البصر فى جميع الأرجاء فشاهدتا رحاباً ليس لها منتهى ، وخالت كل منهما أنها قد ضلت فى تيه عقيم . وتوقفتا عن المسير ترتجفان . وقالت الأميرة :

« إنى أكاد أتوجس شرًّا من رحلة لا أعلم لها نهاية وأشفق من التوغل فى هذا السهل العظيم ، فلقد يخرج علينا من جميع الجهات رجال لم أرهم من قبل » .

وكان الأمير يشاركها هذا الشعور ولكنه استحيى من إظهاره .

وابتسم عملاق حين رأى جزعهم وذهب يشجعهم على المضى فى السير ، ولكن الأميرة مضت فى سيرها على غير وعى منها حتى توغلت فى السهل توغلا استحالت بعده العودة .

وفى الصباح رأوا نفراً من الرعاة فى الحقل ، وقدم لهم الرعاة شيئاً من اللبن والفاكهة . وأدهش الأميرة أنها لم تجد فى انتظارها قصراً يستريحون فيه وخواناً فيه طيبات الحياة يمد أمامهم ، ولكنها أقبلت من فرط جوعها

وإعيائهما على اللبن فشربته وعلى الفاكهة فأكلتها ، وتوهمت أن ما شربت وما أكلت لا مثيل له فى الوادى السعيد .

ولما كانوا جميعاً من المنعمين المرفهين فقد تقدموا فى رحلتهم على مهل مطمئنين إلى أن أهل الوادى قد يفتقدونهم ولكنهم لن يستطيعوا أن يتعقبوهم . وبعد أيام بلغوا بقعة آهلة بالسكان ، وسر عملاق مارآه من إعجاب رفاقه بما رأوه من عادات وأعمال واختلاف بين مراتب الناس .

وكان ملبسهم بسيطاً لا يوحى بأنهم يخفون شيئاً . ولكن الأمير الذى تعود من الناس الطاعة كان ينتظر أن يطيعه كل من يلقاه . وكذلك ارتاعت الأميرة إذ رأت أن من يمثلون أمامها لايقبلون الأرض بين يديها . فكان على عملاق أن يراقب سلوكهما فى حرص عظيم ، خشية أن يهتدى الناس إلى مكانتهما الحقيقية بسبب أعمالهما الشاذة ، وعوقهما فى القرية الأولى جملة أسابيع حتى يألفا معاشرة الأفراد العاديين .

وتعلم الأمير والأميرة شيئاً فشيئاً أن ينسيا مقامهما الرفيع وألا ينتظرا من الناس أكثر مما يسمح به الأدب والجود وأمكن لعملاق أن يعدهما بنصائحه لاحتمال ما فى الموانئ من صخب ولجب وما فطر عليه التجار من خشونة ، وبعد أن نجح فى ذلك هبط بهما ساحل البحر .

وسر الأمير والأميرة بكل ما رأيا ، فقد كان كل شىء عندهما طريفا ولذا أقاما بالميناء بضعة شهور دون أن يبدو عليهما ما يدل على الرغبة فى الانتقال إلى مكان آخر . وارتاح عملاق لبقائهما فقد كان يجد أن من الخطر الخروج بهما إلى بلاد أجنبية وهما على هذه الحال من السذاجة وقلة التجاوب .

وأخيراً بدأ يخاف افتضاح أمرهما ، وحدد لهما موعداً للرحيل . ولم يشأ أيهما أن يبدى فى الأمر رأياً بل أسلما له قيادهما تماماً . وكان

٧٤

من ذلك أن حجز لهما مكاناً على ظهر سفينة وجهتها السويس . ولما حان الموعد المضروب عارضت الأميرة فى ركوب السفينة أشد معارضة ولم ينجح عملاق فى إقناعها باتباع خطته إلا بعد جهد عظيم ، وكانت الرحلة سريعة ومنتجة . ولما بلغ الأربعة السويس انتقلوا إلى القاهرة برًّا .

الفصل السادس عشر

الجماعة تدخل القاهرة وتجد جميع أهلها سعداء

وحين اقتربت الجماعة من القاهرة أخذت بها وعجبت لها ، فقال عملاق مخاطباً الأمير : « هنا يلتقى السائحون والتجار من جميع أركان الأرض . هنا تجد أناساً من كل نوع وتجد كل صناعة تخطر لعقل إنسان . والتجار هنا مكرمون ، ولذا فسوف أتخذ هنا صفة التاجر أما أنتم فستحيون حياة السائحين الذين لا مأرب لهم إلا استطلاع معالم البلاد . وسوف يجد الناس بعد قليل أننا من أهل اليسار فيطير صيتنا ويتفتح أمامنا كل باب نطرقه ، وعندئذ يتاح لك أن تدرس أحوال البشر جميعاً ثم تتدبر فى روية أمر تقرير مصيرك » .

ودخلوا المدينة فذهلوا لما بها من ضوضاء واحتك بهم أهل المدينة. وعادت إلى الأمير وإلى الأميرة طبيعتهما الأولى فراعهما أن يسيرا بين الخلائق غير محتفل بهما وأن يتحدث إليهما أوضع الناس شأناً دون احتشاد . وضاقت الأميرة أول الأمر بأن تسوى بسفلة القوم فلزمت غرفتها بضعة أيام لا تبرحها ، وكانت وصيفتها المختارة بكوا تسهر على خدمتها كما كانت تفعل فى قصر الوادى السعيد .

وكان عملاق ملمًّا بأساليب التجارة فباع بعض الحلى فى اليوم التالى، واستأجر داراً زينها أجمل زينة فعده الناس من سراة التجار . واجتذبت إليه كثيراً من الأخدان واجتذب كرمه إليه كثيراً من التابعين . وعلى مائدته اجتمع أناس من جميع شعوب الأرض ، وقد أعجب هؤلاء بعلمه

الواسع وسعوا إلى التقرب منه . أما رفقاؤه فقد استحال عليهم الاشتراك فى الحديث فلم يفتضح جهلهم ولم يقف أحدعلى ما استولى عليهم من عجب . وهكذا تعرفوا على شئون الدنيا شيئاً فشيئاً كلما ازداد إلمامهم باللغة الجديدة .

وعلم عملاق الأمير منافع المال وطبيعته فى أحاديث عدة كان يلقيها عليه ، ولكن السيدتين أبتا طويلا أن تفهما تبادل التجار للقطع الذهبية الصغيرة والقطع الفضية الصغيرة ، كما استعصى عليهما أن تدركا كيف اتفق لهذه الأشياء التى لا نفع فيها أن تسوى بضرورات الحياة .

ودرسوا اللغة عامين ، وكان عملاق فى تلك الأثناء يهيئ لهم السبيل إلى دراسة أحوال الناس من مختلف الطبقات . وتعرف على كل من شذ مسلكهم وكل من اختلفت حظوظهم عن حظوظ الناس ، وتردد على المستهترين والمقتصدين وعلى الكسالى والمجدين وعلى التجار وأهل العلم .

وبعد أن أتقن الأمير اللغة وتعلم الحذر الضرورى فى مخالطة الغرباء بدأ يصطحب عملاقاً إلى أماكن الترفيه ويندمج فى كل مجتمع لعله بذلك يهتدى إلى ما يناسبه فى الحياة .

وبدا له جميع الناس أول الأمر فى درجة واحدة من السعادة ، فلم يجد ضرورة لتفضيل بعضهم على بعضهم الآخر . وأينما حل كان يرى البشر يغمر النفوس وأينما ذهب كان يقابل بالعطف وأينما قصد كان يسمع أغانى الفرح وضحكات الخلىّ الذى لا يعرف الأحزان . فظن أن الدنيا تفيض بالخيرات وأن الناس يقضون للمحتاج حاجته ويوفون للقدير قدره ، وأن الكرم من شيم الأنام وأن أفئدة العالمين تذوب رقة وحناناً ، فقال :

« إذا كان هذا حال الدنيا فليس لبائس أن يبتئس » .

ولكن عملاقاً ترك الأمير لأوهامه ولم يشأ أن يملأ نفسه الساذجة

ظلاماً ، وكان يوم ساد فيه الصمت بينهما فقال الأمير :

« لست أدرى ما يجعلنى أقل سعادة من سائر الناس . إنى لأرى البشر يفيض على وجوههم دائماً أبداً، وأرانى مضطرب البال قلق النفس. إن أسباب اللهو التى أنتهبها انتهاباً لا ترضينى ، وأنا أختلط بهذا الجمع اللاهى لا حبًّا فى لهوه بل هرباً من نفسى ، وما مرحى وصخبى إلا لإخفاء أحزانى » .

قال عملاق : « إن لكل إنسان أن يقف على ما يدور بأذهان الآخرين إذا هو استعرض ما يدور بذهنه ، وحين تحس بأن مرحك مفتعل فمن حقك أن تشك فى مرح خلانك، والتحاسد لا شك متبادل. وهكذا تمضى سنون وسنون قبل أن ندرك أن السعادة لا وجود لها ، ولكن كلا منا يحسبها من صفات الآخرين ، ليحيا بقوة الأمل فى أن ينالها لنفسه يوماً من الأيام . ولقد رأيت فى سهرة الأمس جوًّا من النشوة عظيماً وانطلاقاً فى خيال السامرين لانجده إلا فى طبيعة الملائكة الذين يسكنون السبع الطباق الصافيات بمنجى من الهموم والفجائع ، ولكن صدقنى أيها الأمير ، ما بين خلانك واحد لم يكن يرهب اللحظة التى يخلو فيها إلى نفسه فتسلمه الوحشة إلى عذاب التفكير » .

قال الأمير : « قد يصدق هذا عن الغير مادام يصدق عنى . ولكن مهما يكن شقاء البشر عميقاً فلا شك أن شقاءهم يتفاوت ، والحكمة تلزمنا بأن نختار من مسالك الدنيا أقلها شقاء حين نعتزم توجيه حياتنا » .

فأجاب عملاق : « إن أسباب الخير والشر تتباين ويصعب تقديرها إلى حد عظيم ، وهى كثيراً ما تختلط وكثيراً ما تتشعب وكثيراً ما تخضع للمصادفات التى لا سبيل إلى التكهن بها ، فمن أراد أن يبنى سعادته على ظروف ثابتة ومقدمات لا يرقى إليها الشك فعليه إذاً أن يقضى العمر كله باحثاً متدبراً » .

قال الرأس إيلاس : « ولكن لا جدال فى أن عقلاء الناس الذين نستمع إلى حديثهم فى رهبة وخشوع ما اختاروا سبلهم فى الحياة إلا لظنهم بأنها تهديهم إلى السعادة أكثر مما يهديهم سواها » .

قال الشاعر : « إن من يملكون الاختيار فى الحياة هم الأقلون . وكل امرئ قد وضعته فى موضعه القائم ظروف لا دخل له فى تفاعلها ولا سلطان له عليه ، وهذا ما يدفع كل امرئ إلى الاعتقاد بأن حظه أبأس من حظ الآخرين » .

قال الأمير : « مهما يكن من شيء فإنى أشكر مولدى الذى هيأ لى مالا يملكه غيرى ، أعنى القدرة على اختيار سبيلى فى الحياة . فالدنيا أمامى أستعرضها على مهل ، وأعتقد أنى واجد السعادة فى مكان ما » .

الفصل السابع عشر

الأمير يصادق فتيان اللهو والصبوات

واستيقظ الرأس إيلاس فى الصباح التالى ، واعتزم أن يبدأ تجاربه على الحياة . قال « إن الشباب عهد المرح ، فخليق بى أن أصطفى من الخلان من كانوا ينقطعون لانتهاب اللذات ويقضون كل أوان فى استنباط المسرات » .

وتردد على مجتمعات الشباب فأكرموا وفادته ، ولكنه انسحب منها بعد أيام، مشمئز النفس متعب الأعصاب ، فقد وجد أن أفراحهم خالية من الخيال ومرحهم مفتعل مصطنع ولذاتهم غليظة حسية لا مقام للعقل فيها وسلوكهم جنونى وضيع . وكانوا يهزءون من القانون ومن النظام ، ولكن غضب الولاة أخرسهم وحكمة العقلاء أخجلتهم .

وسرعان ما أدرك الأمير أنه لن يجد السعادة فى حياة يستحى منها . ورأى أن أهل الرشد لا يليق بهم أن يعيشوا بلا نهج ولا خطة ، وأن يتوقف شقاؤهم أو سعادتهم على محض المصادفة . وفى ذلك قال :

« إن السعادة ينبغى أن تكون ثابتة ودائمة لا يبطلها الخوف ولا تهددها الشكوك » .

ولكن صراحة خلانه وأدبهم وقعا فى نفسه موقعاً حسناً فلم يشأ أن ينشق عليهم دون أن يسدى إليهم النصح .

قال : « لقد تدبرت أسلوبنا وأهدافنا فى الحياة فوجدت أننا قد أخطأنا السبيل . فالسنوات الأولى من عمر الإنسان ينبغى أن تكون ذخيرة لمستقبله . ومن لا يفكر بتاتاً تمتنع عليه الحكمة ، واللهو المتصل لا بد

يفضي إلى الجهالة . والإفراط قد يلهب النفس ساعة ولكنه يقتضب العمر ويشقيه . فلنقتنع بأن الشباب قصير الأجل وأننا لن نجد عزاء إلا فى تقدير العقلاء ولن نجد راحة إلا فى فعل الخير حين نبلغ سن النضوج ، حين تنفض من حولنا عرائس الخيال وتفرغ أطياف السعادة عن رقصها حولنا . فلنكف إذاً قبل أن نعجز عن الكف ، ولنحى حياة الفانين الذين كتبت عليهم الشيخوخة ، فما يفزع المرء فى شيخوخته إلا أن يحصى أعوام عمره بالحماقات ويذكر صحته الغالية كيف أفنتها العربدة وسوء التقدير » .

وحين فرغ الأمير من مقاله شخصت إليه أبصار السامعين ، ثم انفجروا ضاحكين مستهزئين فانصرف لحال سبيله .

وحز فى نفسه استخفافهم به ولم يسر عنه إحساسه بصدق نظره وبنبالة مقصده . ولكنه استعاد هدوءه أخيراً ، ومضى فى بحثه عن السعادة .

الفصل الثامن عشر

الأمير يعثر برجل حكيم سعيد

وفيما كان الأمير يسعى فى الشارع ذات يوم أبصر بناء رحيبا أبوابه مفتوحة للجميع ، ودخل مع الداخلين فألفى نفسه وسط قاعة للمحاضرات أو مدرسة من مدارس الإلقاء ، وفيها رأى الأساتذة يقرءون على السامعين بحوثهم . وشخص بصره إلى حكيم كان يجلس فى أعلى مكان بين الحكماء . وكان ذلك الحكيم يخطب الناس فى حرارة عن ضبط النفس . وكان مظهره يوحى بالاحترام وإشاراته لطيفة الوقع وصوته واضحاً وأداؤه يؤثر فى السامعين . ودلل الحكيم ببيانه القوى وأمثاله المتعددة على أن الطبيعة الإنسانية تنحط حين تسيطر الملكات الدنيا على الملكات العليا وكذلك دلل على أن الخيال إذا اغتصب من العقل سلطانه انهارت دولة النفس واضطرب أمرها ، كما تنهار الدولة حين تتسلط عليها حكومة غير شرعية ، فالوهم يفتح حصون الفكر أمام العصاة الغزاة وينشر بين بنيه التمرد على الرشد ، وهو سيدها الشرعى .

وشبه الحكيم العقل بالشمس فضياء الشمس ثابت دائم واحد ، وشبه الخيال بالشهاب الساقط فهو قوى الوهج زائله ، سريع الحركة ولكنه مضطربها ، وهو يضلل الناظرين .

ومن ثم انتقل الحكيم إلى المبادئ التى تناقلها الخلف عن السلف لقهر العاطفة ، وبين السعادة التى ينعم بها أولئك الذين انتصروا على شهواتهم فهم يتحررون من الخوف ولا ينخدعون بكاذب الآمال

ولا الحسد يأكلهم ولا الغضب يتلفهم ولا الحنان يذيبهم ولا الحزن يؤسيهم ، بل يسعون فى الحياة هادئين أمام زعازعها كما تسعى الشمس فى مسلكها لا يستوقفها جو عاصف ولا جوهر مطير .

وضرب لهم مثل الأبطال الذين لا يهتزون أمام المحن ، ولا يضطربون أمام اللذات ، بل ينظرون مستخفين إلى تلك الأعراض الزائلة التى يسميها السوقة بالخير والشر . وحض الحكيم سامعيه على نبذ أحكامهم التى لا يدعمها منطق ولا حجة ، وأن يتسلحوا بدرع الصبر القوى ليحميهم درع الصبر من سهام الحاقدين ومن ضربات القدر . وختم خطابه بقوله إن من بلغ هذه المرتبة فقد بلغ السعادة ، وأن هذه السعادة فى متناول كل إنسان .

واستمع الرأس إيلاس إلى مقاله باحتشاد يليق بذلك العالم الجليل ، وانتظره عند الباب ورجاه فى خشوع أن يأذن له بلقائه ليتزود من حكمته النادرة . وتردد الحكيم وقتاً ما فوضع الرأس إيلاس فى يده كيساً مملوءاً بالدنانير الذهبية فاستقبل الحكيم هذه المنحة بمزيج من الفرح والعجب .

ولما عاد الأمير إلى عملاق قال له : « لقد وجدت رجلا يعلم الناس كل ما يلزمهم أن يتعلموه فى الحياة ، رجلا يجلس على عرش من الحكمة وطيداً هازئاً بما يجرى تحت قدميه من تقلبات فى ميدان الحياة ، رجلا يتكلم فكلامه مثال الدقة فى التعبير والإخلاص فى التفكير . ولسوف أتخذ من هذا الرجل رائدى ، فأتعلم فلسفته وأتشبه به فى كل ما أعمل » .

فأجاب عملاق : « تريث ولا تثق بمعلمى الفضائل هذه الثقة العمياء ، فحديثهم من حديث الملائكة وفعالهم من فعال البشر » .

وكان الرأس إيلاس لا يتصور أن رجلا يستطيع أن يستخدم كل هذه الحجج الدامغة دون أن تتأثر نفسه بسلامة منطقه ، ولذا فقد زاره بعد أيام ولكن لم يؤذن له بالدخول .

وكان قد عرف ما للمال من قوة سحرية فأبرز قطعة ذهبية فتحت له الطريق إلى داخلية المنزل ، وإذا به يرى الفيلسوف قابعاً فى غرفة لا هى مضاءة ولا هى مظلمة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وشحب وجهه ، وسمعه يقول : « لقد جئت ياسيدى فى وقت لا ينفع فيه عطف ولا إخاء ، فأوجاعى لا شفاء لها ، وما ضاع لا سبيل إلى تعويضه ، إن ابنتى الوحيدة التى كانت تحنو على فى شيخوختى ، قد ماتت بالحمى ليلة أمس . لقد تحطمت آمالى وانهارت أركان فلسفتى وانقضى أملى فى الحياة ، فأنا الآن وحيد أعيش بمعزل عن الناس » ؟

قال الأمير : « إن الموت ياسيدى ظاهرة لا تدهش العقلاء ، فالموت كما نعلم قريب منا فى كل لحظة ، ولهذا ينبغى علينا أن ننتظر وقوعه».

فأجاب الفيلسوف : « أيها الفتى ، إن حديثك حديث من لم يجرب آلام الفراق » .

قال الرأس إيلاس : « وهل نسيت تعاليمك التى كنت تدافع عنها بحرارة عظمى ؟ أما قلت إن الحكمة درع تقى القلب سهام الخطوب ؟ فلنتذكر أن التغير من طبيعة المادة ولنتذكر أن الحق وحده هو الثابت وأن العقل وحده هو الوطيد » .

قال الحكيم المفجوع : « وأى عزاء أجده فى الحق والعقل ياترى ؟ إن الحق والعقل يقولان بأن ابنتى لن تعود إلى » .

وأبت على الأمير رقة فؤاده أن يؤذى الحكيم البائس بتأنيبه فى بأسائه فانصرف عنه مقتنعاً بأن البلاغة جوفاء كالطبول وبأن العبارات المنمقة لا تعبر عن الحقيقة تعبيراً أميناً .

الفصل التاسع عشر

لمحة خاطفة عن حياة الرعاة

وكان حرصه على تقصى مواقع السعادة لا يزال يلازمه . وسمع بزاهد يقيم عند أول شلال من شلالات النيل ، زاهد ذاع صيته فى جميع أرجاء البلاد وتحدث الناس بصلاحه فاعتزم أن يزوره فى صومعته ليرى إذا كانت حياة الوحدة تأتيه بالسعادة التى ضنت بها عليه حياة الحضر ، وليلتمس عند ذلك الشيخ الوقور بتقواه علماً يدرأ به الشرور أو يحتملها كلما حلت به .

وقبل عملاق والأميرة أن يرافقاه فى رحلته ، ثم بدءوا الرحلة بعد الإعداد اللازم . ومروا بالحقول فوجدوا فيها الرعاة يهشون على أغنامهم ورأوا الحملان تلعب فى المرعى .

قال الشاعر : « هذه حياة الرعاة التى طالما تغنى القدماء بهدوئها وبراعتها فلنطلب الحمى من قيظ النهار فى خيمة من خيام الرعاة ، ولنبحث عن السعادة بين المراعى الساذجة فلعلنا نجدها هناك » .

وارتاح الرأس إيلاس إلى هذا الرأى ، واستدرج الرجلان الرعاة إلى وصف حياتهم على حقيقتها ، بعد أن أغرياهم ببدر المال . ولكن الرعاة كانوا غلاظاً أفظاظاً جهالا لا يحسنون التمييز بين مزايا حياتهم ومساوئها ، ولا يجيدون الوصف ولا التعبير ، فلم يأخذا عنهم شيئاً يعول عليه ، ولكنهما استخلصا أن قلوبهم كانت تفيض بمر الشكوى وأدركا أنهم يعتقدون بأن الرعاة جماعة قضى عليها بأن تكدح ليصيب الأثرياء الترف الذى يشتهون ، فهم ناقمون على كل من ارتفعوا فى الحياة عليهم مكانة وجاهاً .

وقالت الأميرة محتدة بأنها لا ترضى بالبقاء بين أولئك الهمج الحاقدين ، وبأنها تؤثر ألا ترى وجهاً آخر من وجوه تلك السعادة الريفية . ولكنها كانت لا تزال تؤمن بأن بعض ما سمعته عن لذة الحياة الساذجة ليس من عمل الأساطير وبقى لها شيء من إيمانها بأن السعادة الوادعة بين الحقول والغابات لا تضارعها سعادة . واعربت عن أملها فى أن تزور الريف فى وقت ما بين نخبة من أهل الذوق والفضل ، فتقطف من الأزهار ما زرعته يداها وتلاعب الحملان التى تلدها شاتها ، وتستمع خلية البال بين الجداول والنسمات إلى وصيفة من وصيفاتها تقرأ كتابا فى فىء الأشجار .

الفصل العشرون

مسـاوئ الثراء

واستأنف الثلاثة رحلتهم فى اليوم التالى حتى ألزمهم الحر أن يبحثوا عن مأوى، وعلى بعد قليل رأوا غابة صغيرة ، وما إن ولجوا الغابة حتى أدركوا أنهم يقتربون من بعض المساكن . وكانت الشجيرات قد اجتثت بعناية حتى تفسح الطريق أمام المارة ، أما الأغصان المتقابلة فقد كانت تتشابك بترتيب من يد الإنسان لا بفعل الطبيعة وفى كل فراغ أقيمت أرائك من حشيش مبسوط نمت به الأزهار ، وجرى نهير متعرجاً بحذاء طريق متعرج وكانت فى ضفتيه فتحات تصب فى أحواض صغيرة ، أما مجراه فقد كانت تعترضه أكوام من الأحجار صغيرة وضعت فيه ليزداد بها الخرير .

واخترقوا الغابة على مهل وقد سرهم ما صادفوا من أسباب الترف والتنميق على غير انتظار ، ومضوا يتكهنون بهوية ذلك السيد المفتن الذى وجد فى وقته متسعاً لهذا الترف والتنميق .

وتقدموا فى سيرهم فسمعوا أنغاماً ورأوا فتياناً وعذارى يرقصون فى الغابة ، وتوغلوا فى سيرهم فشاهدوا قصراً منيفاً مشيداً على تل وبالقصر تحيط الأدغال . ودخلوا القصر تبعاً لحقوق الضيافة عند أهل الشرق فاستقبلهم رب القصر بالبشر والترحاب .

وكان ذلك السيد ذا عين فاحصة فقرأ فى مظهرهم مادله على أنهم ليسوا من عامة الناس فأقام لهم مأدبة عظيمة . واسترعى انتباهه فصاحة عملاق أما أدب الأميرة الذى ينطق بالنبالة فقد استحق منه الاحترام .

ولما رغبوا فى الرحيل رجاهم فى البقاء ، وكان تشبثه بهم فى اليوم التالى أكثر من تشبثه بهم فى اليوم الأول . وقبلوا دعوته شاكرين ، وبمضى الأيام زالت الحواجز بينهم وحلت محلها الثقة والحرية .

ورأى الأمير الخدم فى أسعد حال والطبيعة حوله فى أبهج حلة ، فداعبه الأمل فى أن يجد ضالته فى ذلك المكان . وهنأ الأمير رب القصر على السعادة الغامرة التى يعيش فيها ولكن رب القصر قال مبتئساً : « إن عندى من مظاهر السعادة شيئاً عظيماً ولكن المظاهر مضللة ، فثرائى العظيم يعرض حياتى للخطر ، وباشا مصر يحنقه أن يرى فى هذا الجاه كما يحنقه أن يرى قلوب الناس متعلقة بى . ولقد حمانى من غدره حتى الآن أمراء البلاد ، ولكن عطف العظماء لا يعول عليه دائماً ، ولست أدرى متى يغرى الباشا حماتى بالاشتراك فى نهبى . ولقد أرسلت كنوزى إلى بلاد بعيدة ولسوف أبادر إلى اللحاق بها حين أرى ما ينذر بالخطر . وعندئذ سوف يتمتع أعدائى بقصرى وحدائقى » .

وأقبل الجميع على السيد يواسونه فى حاله ويأسفون لما هو فيه من نفى متصل . وقد بلغ من ألم الأميرة وغضبها أنها انسحبت إلى جناحها .

وأقاموا فى ضيافة هذا السيد الجواد أياماً أخرى ، ثم رحلوا عنه بحثاً عن الزاهد .

الفصل الحادى والعشرون

الوحدة وسعادتها : قصـــة الزاهد

وفى اليوم الثالث دلهم الفلاحون على صومعة الزاهد ، فإذا بها كهف فى جبل تظلله أشجار النخيل . وكان الكهف على بعد من الشلال عظيم ، فلم يصله من هديره الصاخب إلا خرير رقيق منتظم يهدئ النفس ويعدّها للتأمل العميق. وكانت عذوبة الخرير تزداد كلما صفرت الريح بين الأغصان وقد أدخلت يد الإنسان على هذا الكهف من الإصلاح ما أحال تلك الفجوة الخشنة إلى معتكف به حجرات كثيرة ، تستخدم فى مختلف الأمور ويحط فيها الرحال من حين لحين ، كلما أدركهم ظلام الليل أو عصفت بهم الأنواء .

وكان الزاهد يجلس على أريكة عند الباب ليستمتع بنسيم الماء . وكان بجواره الأقلام والقراطيس وإلى جانبه الآخر أدوات آلية من مختلف الأنواع . واقتربوا منه فلم يحس باقترابهم وقرأت الأميرة فى وجهه ما يدل على أنه لا يدرى عن السعادة شيئاً .

وحيوه باحترام عظيم فرد عليهم رد من ألف آداب البلاط . قال :

« يابنى إذا كنتم قد ضللتم الطريق فسوف تجدون فى هذا الكهف منزلا تأوون فيه سواد الليل . وإن لدى ضرورات الحياة جميعاً ، أما الكماليات فلا أحسبكم تتوقعون أن تجدوها فى صومعة ناسك » .

وشكروه ثم دخلوا ، وراقهم ما رأوه حولهم من حسن الترتيب . وجاءهم الناسك باللحم والنبيذ ولكنه ما أكل إلا الفاكهة وما شرب إلا الماء. وكان حديثه مرحاً ولكن فى حدود الوقار ، ورعاً ولكن دون حماسة

شديدة . وسرعان ما ألزم أضيافه باحترامه وقد أسفت الأميرة على تعجلها فى الحكم عليه .

وأخيراً انتقل عملاق إلى الموضوع فقال : « هذا يفسر كف ذاع صيتك فى العالمين ، ولقد سمعنا بحكمتك فى القاهرة فقصدناك راجين أن تدل هذا الفتى وهذه الفتاة على أسعد سبيل يسلكانه فى الحياة » .

فأجاب الناسك : « إن السعادة من نصيب الأخيار ، وما عندى من رأى فى هذا الشأن إلا التنكب عن كل ما يتوسم فيه الإنسان شرًّا » .

قال الأمير : « إن من يتبع مثلك فينزوى عن الناس تماماً يتنكب طريق الشر ما فى ذلك شك » .

قال الزاهد : « لقد اعتزلت الدنيا خمسة عشر عاماً حقًّا ، ولكنى لا أرجو أن يقتفى الناس أثرى فيما فعلت — فى شبابى كنت من رجال الجيش وبلغت أعلى المناصب العسكرية وقد اجتزت البلدان الواسعة على رأس أجنادى ورأيت من المعارك وحصار المدن عدداً عظيما . ووجدت أن الدنيا مليئة بالبؤس والتشاحن وأسباب الغواية ، ثم اتفق أن ضابطاً صغيراً تخطانى فى الترقية فسئمت نفسى الحياة العامة ، ووجدت أن قوتى الأولى قد أنشأت تتدهور فرأيت أن أختم حياتى ختاماً هادئاً بعيداً عن ضجيج الناس . وذكرت يومئذ أنى قد اعتصمت ذات مرة بهذا الكهف من عدو يطاردنى فاخترته نفسى ليكون معتزلى الأخير . وقد جئت بالصناع ليقسموه إلى غرف وكدست فيه كل ما رأيت أنى سأحتاج إليه .

« وكنت فى الأيام الأول من اعتكافى أنعم بوحدتى كما ينعم الملاح بالمرفأ بعد أن تقسو عليه الزعازع ، ووجدت فى سكونى وراحتى ماشفانى

من ضجيج الحروب وعثائها . فلما زالت لذة الحياة الجديدة انصرفت إلى دراسة ماينبت فى الوادى من أشجار وتحليل ما جمعته من معادن لاصقة بالصخور ، ولكنى أضيق الآن بكل هذا ، وقد استبد بى القلق وشرود العقل فى الأيام الأخيرة وبلبلت الحيرة وجدانى وسممت الشكوك والأوهام خيالى وماذلك إلا لأنى لا أجد ما أكسر به ملل هذه الحياة الرتيبة . ويخجلنى أحياناً أن أذكر أنى ماوجدت سبيلا إلى اتقاء الشر إلا بالفرار من أداء الفضيلة ، ويخيل إلى أحياناً أن مادفعنى إلى الاعتكاف ليس التقوى بل الغضب لما نزل بى من إجحاف . وفى نفسى تثور الخواطر الهائجة ، ويؤسفنى أنى باعتكافى قد أضعت الكثير وما جنيت إلا القليل . وإذا كنت بفرارى من المجتمع قد أمنت غواية الأشرار فأنابه قد فقدت هداية الأخيار . ولقد وازنت طويلا بين مزايا المجتمع ومضاره وقد صح عزمى على العودة إلى الدنيا غداً . والمعتزل لا شك فى شفائه ، أما ورعه فليس يعلو على الشك » .

واستمعوا إلى مقاله عاجبين ، ولكنهم بعد أن أفاقوا عرضوا عليه أن يصحبهم إلى القاهرة . فاستخرج كنزاً عظيماً كان قد أخفاه بين الصخور ، وعاد معهم إلى المدينة ، فلما أشرفوا عليها التهمها الناسك الجذلان ببصره التهاماً .

الفصل الثانى والعشرون

سعادة الحياة المتمشية مع الطبيعة

وأخذ الرأس إيلاس يتردد على مجمع من مجامع العلماء يلتقى فيه رجال الفكر فى أوقات منتظمة ليتبادلوا الآراء . وكانت أساليبهم خشنة بعض الشىء ولكن حديثهم كان نافعاً وجدلهم كان قوياً وإن بلغ حد الاحتداد المرذول أحياناً ، وتشعب حتى ينسى المتناقشان مبدأ المناقشة . وكان أكثرهم يشتركون فى بعض النقائض فيحاول كل منهم أن يملى على الآخرين رأيه ويسرّ كل منهم للغض من قيمة زملائه .

وكان الرأس إيلاس يقص على أعضاء هذا المجمع ما كان بينه وبين الناسك ويروى لهم كيف أنه عجب إذ سمع ذلك الناقد يؤنب نفسه على اختياره حياة الزهد برضاه . واستقبل السامعون قصته استقبالا متفاوتاً ، فمنهم من رأى أن الحماقة التى أبداها فى ذلك الاختيار قد نالت قصاصها الحق بما لقيه الناسك من وحشة متصلة ، ومنهم من وصف الناسك بأنه منافق فيما فعل ودافع عن هذا الرأى أحر دفاع ، ومنهم من انتقل إلى الحديث عن حق المجتمع على الأفراد وحق المجتمع فى عمل الأفراد وعدوا اعتزال الحياة فراراً من الواجب ، وقال آخرون إن من حق الإنسان فى ظروف معينة أن ينسحب من الحياة بعد الوفاء بالتزاماته نحو الجماعة لكى يحاسب نفسه على ماقدمت ولكى يطهر ضميره من أدران الرذيلة .

وكان بينهم رجل تأثر لما سمع أكثر من سواه وقال إن الناسك سوف يعود بعد أعوام إلى معتكفه ، فإذا لم يرده الخجل أو يعترض

الموت خطاه فقد يخرج إلى الحياة مرة أخرى. وأيد هذا الرأى بقوله :
« ذلك لأن أمل الإنسان فى السعادة متأصل فى نفسه فأطول التجارب لا تمحوه. ونحن نحس بالشقاء فى حالتنا الراهنة ولا سبيل إلى إنكار ذلك، ولكن هذه الحالة ذاتها حين تصبح جزءاً من الماضى البعيد يلونها الخيال بأبهج الألوان فنتمنى لو تعود. ولكن لا جدال فى أننا سنبرأ يوماً من عذاب الأمانى، وهكذا يزول الشقاء الذى نفرضه على أنفسنا فرضاً.

وكان بين الحاضرين فيلسوف يستمع إلى كلامه بصبر نافد، فما إن فرغ الرجل من مقاله حتى أجاب :

« لقد برأ الحكماء فعلا من عذاب الأمانى، ولقد زال الشقاء الذى نعرضه على أنفسنا فرضا. وإن السعى وراء السعادة التى طرحتها الطبيعة ذات السماحة بين أيدينا لمن عمل الكسالى المتبطلين. فطريق السعادة هو اتباع الطبيعة وفى طاعة ذلك القانون الكلى الثابت الذى نقشته يد القدر على كل قلب ولم تكتبه على كل قلب يد الإنسان، ذلك القانون الكلى الثابت الذى ألهمناه بالفطرة ولم نكتسبه بالتعلم. إن ومن يستهدف الطبيعة فى كل ما يفعل لا تزعجه أوهام الأمل أو تباريح الرغبة. فرضاه وإعراضه يأتيان عن نفس هادئة وأفعاله وإحساسه تكون بما يمليه العقل. ولقد يتلهى بعض الفلاسفة بإيجاد التعاريف الدقيقة للسعادة والتفسيرات المنطقية المعقدة لمدلولها، ولكن الحكمة لا تحتاج إلى كل هذه الحذلقة. فليدرسوا غزال الغاب وطير الدغل، وليتدبروا حياة الحيوان الذى تتحكم غرائزه فى كل حركة يتحركها. الحيوان يتبع رائده ورائد الحيوان طبيعته، وسعادة الحيوان أعظم من سعادة الإنسان فلنقصر القول ولنتعلم كيف نعيش. فلنطرح تعاليمنا الثقيلة جانبا تلك التعاليم التى لا يفهم معناها أكثر الناس طنطنة بها، ولنحمل فى أفئدتنا المثل البسيط الواضح القائل بأن البعد عن الطبيعة بعد عن السعادة »

ولما فرغ من كلامه تلفت حوله مطمئنا وارتاح لما ألقاه من درر . وقال الأمير في تواضع جم :

« لقد انصرفت إلى تتبع حديثك بكل جوارحي لأني أبحث عن السعادة شأن غيري من الناس . ولست أرتاب في صدق هذه الأقوال التي جاءت من عالم مثلك مفضّال في لغة مشربة باليقين . ولكني أطلب إليك امرا واحدا ، ألا وهو أن تهديني إلى الحياة التي تتمشى مع الطبيعة » .

قال الفيلسوف : « أنا لا أضن بعلم على فتى في مثل وداعتك وتواضعك . الحياة التي تتمشى مع الطبيعة هي الحياة التي يعمل فيها الإنسان دائمًا تبعا لما تمليه العلاقات القائمة بين الأسباب والنتائج وتبعا لما تتصف به هذه الأسباب وهذه النتائج من خواص ، وهي الحياة التي يتم فيها الانسجام مع ذلك القانون السرمدي العظيم قانون السعادة الكلية ، وهي الحياة التي تنحو إلى التعاون مع الصفات والاتجاهات الخاصة التي تتميز بها الأشياء في وضعها الراهن . »

وسرعان ما أدرك الأمير أنه يصغي إلى حكيم كلما أطال القول تعذر فهمه ، ولذا أحنى رأسه ولاذ بالصمت . وحسب الفيلسوف أن صمته أمارة الاقتناع وخال أنه انتصر على الحاضرين انتصارا مبينا ، فنهض وخرج من القاعة خروج رجل قد تعاون مع الصفات والاتجاهات الخاصة التي تتميز بها الأشياء في وضعها الراهن .

الفصل الثالث والعشرون

الأمير والأميرة يشتركان فى دراسة الحياة

وعاد الرأس إيلاس إلى داره غارقا فى بحار التفكير لا يدرى كيف يوجه حياته المستقبلة ، فقد رأى أن الحكماء والبسطاء يستوون فى جهلهم بطريق السعادة ، ولكنه تعزى عن خيبة أمله بحداثه سنه وزعم أن أمامه متسعا من الوقت يبحث فيه وينقب .

وأعرب لعملاق عن ملاحظاته وشكوكه ، ولكن إجابة عملاق زادته شكا على شك . وبعدئذ تحدث إلى أخته بأكثر وبأصرح مما تعود أن يتحدث فقد كانت أخته لا تزال مثله على أملها فى استكشاف السعادة ، وكانت لا تعدم قولا تشجعه به على المضى فى بحثه كلما أصاب فشلا . وفى ذلك قالت :

« إننا لم نختبر من الدنيا إلا أقلها ، ونحن لا نزال من أوساط الناس فما ارتفعنا حتى الآن إلى مقام العظماء ولا انحططنا إلى سفلة القوم . فقد كنا فى بلادنا من البيت المالك ولكن بلا سلطان . أما فى هذه البلاد فنحن لم ننفذ بعد إلى خبايا الأسر لنرى ما تعيش فيه من سلام . إن عملاقاً لا يشجعنا على البحث مخافة أن نكشف له فى النهاية عن خطئه . فلنشترك إذاً فى الاستقصاء ، ولتنفرد أنت بدراسة حياة الأشراف ولأنفرد أنا بدراسة الطبقات الأخرى ، فلعل السلطة والبأس هما مصدر السعادة لما يهيئانه للناس من فرص لفعل الخير ، أو لعل التوسط والاعتدال هما مصدر السعادة لأنهما بعيدان عن الأعمال الجسام ومتاعبها من ناحية وعن الفقر وآلامه من ناحية أخرى » ..

الفصل الرابع والعشرون

الأمير يبحث عن السعادة بين الطبقات العليا

وأظهر الرأس إيلاس رضاه عن هذا الرأى ، وفى اليوم التالى قصد إلى بلاط الباشا فى حاشية عظيمة . وسرعان ما تبين علو قدره فقدموه إلى الباشا وأعوانه العظام على أنه أمير جاء به حبه للاستطلاع من أقطار بعيدة ، وتوثقت بينه وبينهم أواصر الصداقة .

وظن أولا أن رجلا يقدم له جميع الناس فروض الطاعة والاحترام . . رجلا تسمع كلمته فى طول البلاد وعرضها ، لا بد أن يكون راضياً بحاله وفى ذلك قال :

« إن سعادة الحاكم الذى يحس بأن حكمه الصالح قد أسعد آلاف الناس لسعادة لا تعدلها سعادة . ولكن قبل هذه السعادة الفذة التى اختص بها رجل واحد لا أكثر بحكم النظام الاجتماعى الذى يقوم على أساس الطاعة والرياسة ، فمن الأرجح أن هناك نوعا آخر من السعادة قد يشترك فيه عدد من الناس عظيم ، والعقل يقول بأن من المحال أن يخضع الملايين لفرد واحد لا لشىء إلا لكى يفعموا قلبه بسعادة ليست بذات حدود » .

نعم ، هذا ما قاله الرأس إيلاس محدثاً نفسه ، ولقد كانت هذه الخواطر تدور بفكره كثيراً ، فما وجد لهذه العقدة حلا . ثم توطدت صلته برجال البلاط بالهدايا وحسن المقال فأدرك أن الكثرة المطلقة منهم يكن بعضها المقت لبعضها الآخر ، وأن حياتهم سلسلة متصلة من الدسائس وافتضاح الدسائس ، ومن المؤامرات وافتضاح المؤامرات ومن

التحزب والخيانة والاعتقال والفرار . ووجد أن كثيراً من أعوان الباشا قد بعثوا إليه ليراقبوا مسلكه وليقفوا على نواياه . وسمع كل لسان يجأر بالنقد وكل عين تبحث عن خطأ .

وأخيراً جاءت وثائق العزل، فإذا الباشا يحمل إلى القسطنطينية مغللا بالأصفاد وانطوى اسمه كأنه لم يكن .

قال الرأس إيلاس لأخته : « ما موقفنا الآن من السلطة ومزاياها ؟ أما نرجو من ورائها تحقيق الخير ؟ أم ترى الخطر يلازم المناصب الثانوية وحدها ، أما رب الدولة فهو مطمئن وسعيد؟ ترى أيكون السلطان الشخص الأوحد الذى ينعم بالسعادة فى دولته؟ أم ترى السلطان ذاته تؤرقه الشكوك والمخاوف لكثرة أعدائه ؟ »

وبعد فترة وجيزة عزل الباشا الثانى ، أما السلطان الذى كان قد ولاه على مصر فقد اغتاله عساكر الانكشارية لأن خليفته كان يختلف معه فى الرأى ويحمى طائفة من المقربين غير طائفته .

الفصل الخامس والعشرون

الأميرة تبحث جادة عن السعادة فلا تصادف توفيقاً عظيماً

وفى هذه الأثناء كانت الأميرة تختلط بمختلف الأسر ، فالكرم والسماحة يفتحان كل الأبواب إلا أقلها . ووجدت الأميرة أكثر بنات الأسر على مرح عظيم ، ولكن نكاية التى تعودت جاد الحديث من عملاق ومن أخيها لم ترتح إلى ثرثرتهن الصبيانية . وحكمت على تفكيرهن بالضيق وعلى رغباتهن بالانحطاط وعلى مرحهن بالافتعال . وكان لهوهن على تفاهته تفسده المنافسات الحقيرة والتحاسد على لا شيء . فكانت كل منهن تنفس على الأخرى جمالها ، برغم أنها تعلم أن التمنى لا يأتى بالجمال والانتقاص لا يزيله. وكان بينهن عدد عظيم يعشق فتياناً تافهين تفاهة البنات سواء بسواء ، فكن يتوهمن أنهن يهوين الفتيان حقاً وقد كن يتلهين بهم إزجاء للفراغ . وكن لا يقدرن فى الرجال رجاحة العقل أو نقاء النفس ولذا كان غرامهن ينتهى دائماً بخيبة الأمل . ولكن حزنهن كان خفيفاً عابراً شأن فرحهن . وكن يعشن فى الحاضر وحده فلا يتمثلن تجارب الماضى ؟ ولا يتصورن حياة المستقبل ، ولهذا كانت الرغبة تحل محل الرغبة فتمحوها فى غير عناء كما يمحو حجر ألقى فى الماء الدوائر التى رسمها حجر سابق .

ولما كان غرضها التغلغل فى بواطن نفوسهن فقد دأبت على أخذهن بالحسنى ، واستطاعت بعطفها أن تحمل الشاكيات منهن على الإفضاء إليها بأسرار قلوبهن المحطمة . كذلك دعتها الفتيات الطامعات فى مال أو أمل إلى الاشتراك معهن فى أفراحهن .

وكانت الأميرة تلتقى بأخيها الأمير كل يوم تقريباً فى منزل يشرف على النيل لتبادل التجارب . وفيما هما جالسان معاً انصرف بصر الأميرة إلى النهر الجارى من تحتها وقالت :

« أجبنى يا أبا الأنهار العظيم ، أجب ندائى ، أنا ابنة ملك من ملوكك ، أجب يا من تفيض مياهك فتروى ثمانين أمة . أ واديك الطويل بيت واحد لا يهمس أهلوه بالشكوى ؟ »

فقال الرأس إيلاس : « إذن فقد كان بحثك فى دخائل البيوت عبثاً كبحثى فى مجامع الأشراف » .

أجابت الأميرة : « لقد أمكننى أن أنفذ إلى حرمات الأسر التى تدل حالها على رخاء لا بأس به وسلام لا يعكره شىء فى ظاهره ، ولكنى لم أجد بين هذه الأسر كلها أسرة واحدة ليس لديها ما يقض مضجعها » .

« فلما خالطت الفقراء لم أتوقع أن أجد بينهم إلا شظف العيش ، ولكنى وجدت بينهم عدداً كبيراً يعيش فى رغد أو ما أتصوره أنا رغداً . فالفقر فى المدن الكبرى يتخذ أشكالا تختلف كثيراً عن أشكاله فى الريف ، فالبذخ يقيه والإسراف يطمس معالمه والكثرة المطلقة من الناس تجتهد لستر إملاقها عن العيون ، وهى تحيا من يوم إلى يوم وهى تقضى عامة النهار فى التفكير فى حاجات الغد .

« وهذا الشر الفاشى بين الناس لم يحزنى كثيراً فقد كنت أمحوها بإغاثة كل من أخالطه من الفقراء . ولكنى وجدت من بعضهم رفضاً لهباتى ، فقد آلمهم إدراكى لحاجاتهم أكثر مما سرتهم رغبتى فى إغاثتهم . أما الآخرون الذى ألزمهم سوء الحال بقبول عطاياى فلم يغتفروا لى قط هذا الصنيع . ولكنى برغم ذلك قد صادفت كثيراً من الفقراء الذين استقبلوا العون شاكرين ، دون أن يعرضوا على الملأ شكرانهم أو يرجو تجدد المكرمات » .

الفصل السادس والعشرون

الأميرة تمضى فى حديثها عن الحياة الخاصة

ولما رأت نكاية اهتمام أخيها بحكايتها مضت فى سردها تقول :

« وقد دلني اختبارى على أن الشقاق يسود كل الأسر سواء فى ذلك الفقيرة وغير الفقيرة . وإذا صدق عملاق بأن الدولة إن هى إلا أسرة كبيرة ، فيصدق كذلك أن الأسرة دولة صغيرة تمزقها الخلافات وتهددها الثورات . ومشاهد قليل الاختبار يتوقع أن يدوم حب الآباء والبنين وأن يكون متبادلا بدرجة متساوية ، ولكن هذا الحب قلما يدوم بعد سني الطفولة ، فبعد قليل يكون التنافس بين الآباء والأبناء ويفسد المن أفضال الآباء فيقابل الأبناء أفضالهم بالجحود .

« ثم إن الانسجام لا وجود له بين الوالدين أو البنين ، فالبنون يتنافسون على حب الوالدين وتقديرهم ، وكذلك يتنافس كل من الوالدين على حب البنين وتقديرهم كل على حساب الآخر ، برغم أنهم لا يجنون من وراء ذلك إلا قليلا . فيكون من ذلك أن بعض الأبناء يثقون فى آبائهم ويثق البعض الآخر فى أمهاتهم ، وتشتد المشاحنات فى الأسرة شيئاً فشيئاً .

« وأفكار الأبناء تتعارض دائماً مع أفكار الآباء ، فالجيل الجديد بسنة الطبيعة يناقض الجيل القديم ، لأن الأول يفيض بالأمل والثانى يخضع لليأس ، ولأن الأول يتطلع إلى المستقبل والثانى يستعيد تجارب الماضى . ولكل منهما ما يبرر موقفه ، فألوان الحياة تبدو زاهية لعين الشباب وتبدو كئيبة لعين الشيخوخة فهى تختلف كما تختلف وجه الطبيعة

فى الربيع وفى الشتاء . والأبناء لا يجدون فى فلسفة الآباء زيفاً واضحاً لأنها لا تطابق الحياة كما يعرفونها .

« ويندر أن نجد من الآباء من يتقيد فى سلوكه العملى بآرائه فى الحياة والشيوخ يؤمنون تماماً بالتدبير المحكم والتقدم البطىء أما الشباب فيؤمنون بنبوغهم وقوتهم واندفاعهم . الشيوخ يمجدون المال أما الشباب فيمجدون الفضائل . الشيوخ يؤلهون الحزم أما الشباب فيؤلهون الشهامة ويتركون مصيرهم فى يد المقادير . والشباب الذى لا يضمر الشر قط يتوهم أن الشر لا وجود له ، وهذا سر صراحته ، أما الشيخوخة فتكثر من التشكك لأنها اختبرت الخديعة ، وكثيراً ما تعمد بنفسها إلى المخادعة . الشيخوخة تغضب لتهور الشباب والشباب يحتقر حذر الشيخوخة . وهكذا يضيع الوئام شيئاً فشيئاً بين الآباء والأبناء . وإذا كان أقرب الناس مودة يشق بعضهم بعضاً فأين ياترى نلتمس الحنان والعزاء ؟ »

أجاب الأمير : « لا شك أنك قد أسأت اختيار الأصدقاء ، فليس يعقل أن صلة الأبناء والبنين وهى أقوى صلة عرفتها الطبيعة تفسد هكذا بحكم الضرورة » .

قالت الأميرة : « إن الشقاق فى الأسرة ليس واجب الوجود ، ولكن تجنبه أمر عسير . فقلما نجد أن جميع أفراد الأسرة مستمسكون بالفضائل . والأخيار والأشرار لا يتفقون ، وكذلك لا يتفق الأشرار والأشرار . ولقد يختلف الأخيار والأشرار أنفسهم إذا كانت فضائلهم من نوع مختلف أو إذا اتصفوا بالتطرف فى سجاياهم . ولكننا نستطيع أن نحكم بوجه عام بأن الآباء الذين يستحقون الاحترام ينالونه ، فمن استقامت حياته عاش موفور الكرامة .

« كذلك تهدد الحياة الخاصة شتى المنغصات . فمن الناس من يستعبدهم خدمهم الذين استأمنوهم على شئونهم . ومنهم من يزعجهم أقرباؤهم الموسرون ، فما يستطيعون إرضاءهم وما يستطيعون إيلامهم .

كذلك نجد من الأزواج من يستبد بزوجته ونجد من الزوجات من تشذ فى معاملتها لزوجها . ولما كان فعل الشر أهون على النفس من فعل الخير فإن الحماقات والرذائل تجر من الشقاء على الأسرة ما لا تعوض عنه الحكمة والفضيلة » .

قال الأمير : « إذا كانت هذه حال الزواج بوجه عام فسوف أجد من الخطر على سعادتى أن أربط حياتى بحياة أخرى حتى لا تشقينى أخطاء شريكتى فى الحياة » .

قالت الأميرة : « لقد التقيت بأناس كثيرين يضربون عن الزواج لهذا السبب ، ولكنى لم أجد فى حكمتهم ما يحسدون عليه ، فهم يقضون حياتهم فى أحلام الوحدة وقد جفت قلوبهم من الحب ، فتراهم يسعون إلى قتل الوقت باللهو الخبيث أو التسلية الصبيانية فما للوقت عندهم نفع ، كذا يتبدى إحساسهم بالنقص فى كل ما يفعلون ، فالنقص يملأ نفوسهم بالسخيمة وألسنتهم بنقد الآخرين . فهم سيئو الطبع فى بيوتهم مولعون بالإيذاء خارجها ، وهم يجدون لذة فى تحطيم كل مجتمع لا يستقبلهم بصدر رحب ، لأن البشرية قد لفظتهم من رحمتها وهم لا يعطفون على أحد ولا يعطف أحد عليهم ، فإن سعدوا لم يشاركهم أحد سعادتهم وإن شقوا لم يشاركهم أحد شقاءهم ، وهى حال أقسى على النفس من الوحدة ذاتها ، فهم لا يعتزلون العالم ولكنهم يخرجون من زمرة البشر . وإذا كانت فى الزواج آلام عديدة فليس فى العزوبة لذة واحدة » .

قال الرأس إيلاس : « وما العمل إذن ؟ إن الأمر يزداد تعقداً كلما أمعنا فى بحثه وتحليله. ولكن لا شك فى أن من ينصرف إلى إسعاد نفسه يجد السعادة التى ينشدها » .

الفصل السابع والعشرون

مقال فى العظمة

وسكتا قليلا ، وبعد أن تدبر الأمير رأى أخته قال إنها قد حكمت على الحياة دون أن تنصف وافترضت وجود الشقاء حيث لا شقاء . قال : « إن ما رويته علىّ لا يلقى ظلا كئيباً على الحاضر وحده بل يطفئ كذلك سراج الأمل فى المستقبل . إن الصورة السوداء التى رسمها عملاق إن هى إلا خيال باهت للشرور التى تصفينها بالنكاية . ولقد اقتنعت أخيراً بأن الهدوء ليس وليد العظمة أو السلطان ، فهو لا يشرى بالمال ولا يصاب بغزو الغزاة . فمن الواضح أن اتساع نفوذ الإنسان يعرضه بالضرورة لعداء الأعداء أو لزلل المصادفات . ومن اضطلع بإرضاء الناس أو بإدارة شئونهم فإن عليه أن يستخدم من العمال عدداً عظيماً ، ولا بد أن بين هؤلاء العمال الجهال ولا بد أن بينهم الظالمين ولا بد أن بينهم المضللين ولا بد أن بينهم الخائنين : فلو أرضى الحاكم أحدهم أغضب سواه ولو قرب الحاكم نفراً زعم الآخرون أنه قد غمطهم حقوقهم . ولما كانت العطايا لا تجزل إلا للأقلين فالكثرة المطالبة فى سخط مستديم » .

قالت الأميرة : « إنى أزدرى هذا السخط الذى ليس له ما يبرره وأرجو الله ألا تخضع أنت له قط » .

أجاب الرأس إيلاس : « إن للسخط دائماً ما يبرره مهما صلح الحكم وسهرت الإدارة على إحقاق الحق وتوزيع العدل بين الناس . وما من حاكم مهما يكن يقظاً بمستطيع أن يستكشف موهبة نابغ

طمسها الفقر أو سترها التحزب ، وما من حاكم مهما يكن قوياً يستطيع أن يكافئ هذه الموهبة . ولكن من يرى قليل الكفاية مقدماً على كثيرها يعزو ذلك التفضيل بطبيعة الحال إلى تحيز الرؤساء أو نزواتهم التي لا ضابط لها . ويدخل في باب المحال أن يستمسك رجل مهما عفت نفسه أو ارتقت سجاياه بالعدالة المطلقة في كل زمان وفي كل ظرف . فهو آنا يستسلم لعواطفه الشخصية وهو آناً يستسلم لأهواء خلصائه ، وهو يرضي بالعاجزين وهو يرى من الفضائل في أصفيائه مالا يتحلون به في الواقع وهو يسعى إلى إسعاد من يعملون على إسعاده .

وهكذا تسود التوصيات ولقد تشترى بالمال أو بما هو أخس من المال ، أعني بالملق وتقبيل الأيادي .

« ومن كثرت أعماله تعرض للخطأ ، ولا بد أن يتحمل تبعات خطئه . ولو قيض لامرئ أن يحسن طول حياته فلن يعدم وضيعاً ينقد عمله عن خبث ولن يعدم فاضلا ينقد عمله عن سوء تقدير .

« لهذا كان من المحال أن نجد السعادة بين عظماء القوم ، وإني لا أعتقد أن السعادة قد هجرت عروش الملوك وقصور الأشراف إلى أكواخ الفقراء ومنازل المغمورين ، فهؤلاء تتناسب كفايتهم مع أقدارهم في الحياة ، وهؤلاء يبصرون مجالهم ويدركون حدودهم حق الإدراك ، وهؤلاء لا يصطفون من الأصدقاء إلا من استأهلوا ثقتهم ، ولست أرى كيف يحول بينهم وبين السعادة شيء ، فليس أمامهم إلا أن يخلصوا للغير فيخلص الغير لهم ، وليس أمامهم إلا طريق الفضيلة وهو طريق السعادة » .

قالت نكاية : « ليس في العالم ، ما يجعل السعادة الكاملة نصيب أهل الفضيلة الكاملة بالضرورة . ولكننا نستطيع أن نقول إننا نرى مظاهر الفضيلة أكثر مما نرى أمارات السعادة بين الناس . وإن ضربات

الطبيعة جميعاً والكثرة المطلقة من ضربات المجتمع لتتناول الأخيار والأشرار سواء بسواء . فالقحط يعم الجميع ولا يقتصر على فريق من الناس دون سواه . فإذا تحطمت سفينة غرقوا جميعاً وإذا غزا العدو ديارهم فروا أمامه جميعاً .

« إن الفضيلة لا تهئ للإنسان إلا راحة الضمير والأمل المتصل فى نوال السعادة المطردة ، ولقد يعيننا كل ذلك على تحمل الشدائد صابرين ، ولكن الصبر ذاته يتضمن وجود الألم » .

الفصل الثامن والعشرون

الرأس إيلاس والأميرة نكاية يستأنفان حديثهما

قال الرأس إيلاس : « أنت يا أميرتى العزيزة تتورطين فى الخطأ الشائع ، ألا وهو المبالغة فى التعبير . فإنى أراك تذكرين لى نماذج مألوفة من النكبات العامة والبؤس العميم نقرأ عنها فى الكتب أكثر مما نراها فى حياتنا اليومية ، وهى نماذج أراد القضاء أن تكون نادرة الوجود لأنها شديدة البشاعة . فلنكتف فى تصورنا للشر بما نحسه نحن فعلا ولنتجنب تصوير الحياة تصويراً ممسوخاً . وأنا لا أطيق أن أستمع إلى شكايات الشاكين من أهل البلاغة ، تلك الشكايات التى تنذر كل مدينة بحصار أليم كحصار أورشليم ، وتتنبأ بمجاعة كلما مر سرب من الجراد ، وتعلن مجىء الطواعين كلما هبت من الجنوب ريح قوية .

« ومن العبث أن نتجادل فى الضربات التى تحيق بالدول ولا سبيل إلى دفعها ، فمثل هذه الضربات لا بد من احتمالها . ولكن من الواضح أن الناس يرهبون هذه المآسى العامة أكثر مما يحسونها ، فمن الناس آلاف مؤلفة تشب وتشيخ دون أن تعرف من النكبات إلا النكبات الشخصية ، ولا تذوق من اللذات أو تعانى من المضايقات إلا مألوفها ، سواء أكانت تعيش تحت جور ملك طاغية أم كانت تعيش فى فىء ملك رحيم ، وسواء انتصرت جيوش بلادهم أم مزق العدو أوصالها . فالحداد لا يفتأ يضرب بمطرقته سنديانه ، والفلاح لا يفتأ يدفع أمامه محراثه لا يدريان شيئاً عن دسائس النبلاء التى تمزق البلاط فى الداخل

أو مساومات السفراء فى الخارج ، وهما يخضعان لضرورات الحياة ويزيلان تلك الضرورات ، وهكذا تتعاقب عليهما الفصول فتتعاقب معها مشاغلها المألوفة .

« فلنكف إذن عن تدبر ما قد لا يحدث بتاتا ، ولنكف إذن عن تدبر ما يتجاوز تقدير الإنسان . إننا لن نحاول أن نغير مجرى الطبيعة أو نبت فى مصائر الشعوب ، وغايتنا أن ندرس ما يمكن لأمثالنا أن نقوم به من أعمال ، فكل منا ساع فى طلب السعادة ووسيلته فى ذلك طلب السعادة للآخرين داخل نطاق حياته مهما ضاق نطاق حياته .

« وواضح أن الزواج تكليف من قبل الطبيعة ، فالرجال والنساء قد خلقوا ليتلازموا فى طريق الحياة ، وهذا ما يجعلنى أقتنع بأن الزواج سبيل من سبل السعادة » .

قالت الأميرة : « وما أدرانا بأن الزواج ليس سبيلا من سبل الشقاء وهى كثيرة يعجز دونها الحصر . فحين أتأمل صور التعاسة الزوجية على اختلافها ، وحين أتأمل أسباب النزاع الدائم التى لم تدخل فى تقدير الأزواج ، وتباين الطباع ، وتضارب الآراء ، وكل صدام فظ بين الرغبات المتعارضة تمليه العواطف الهوجاء ، وحين أتأمل الشقاق المتواصل الذى يمليه اختلاف الفهم لمعنى الفضيلة ويزيد من حدته اقتناع كل بحسن نيته ، حين أتأمل كل ذلك يخيل إلى أحياناً أن ما يذهب إليه أسخر الساخرين فى كل أمة صحيح وهو أن الزواج أمر يأذن به الناس ولا يوافقون عليه ، ويبدو لى أنه ما من أحد يرضى بأن يكبل نفسه بأغلاله الأبدية إلا إذا كان صريع شهوة جارفة تعمى بصيرته » .

أجاب الرأس إيلاس : « لعلك قد نسيت أنك منذ لحظة واحدة قد صورت حياة الوحدة تصويراً أنكد من تصويرك للحياة الزوجية

إن كلا الحالين قد يكون سقيما ولكن لا بد أن أحدهما أقل نكداً من الآخر . وهكذا الأمر إذا اجتمع فى العقل رأيان خاطئان فإن أحدهما لابد أن يدمر الآخر وبذا يهيىء العقل لمعرفة الحقيقة » .

فأجابت الأميرة : « ما كنت أتوقع أن ينسب هذا للبطلان ، فالبطلان ابن الضعف . ومن العسير أن يوازن العقل بدقة بين كبار الأمور ذات المرمى البعيد والوجوه المتباينة ، كما أن من العسير على العين أن توازن بدقة بين ضخام الأجسام ذات الأطوال المديدة والصفات المختلفة . ونحن لا ندرك الفوارق ولا نقف على المزايا لأول وهلة إلا إذا رأينا الأشياء فى كليّتها . فإذا عرض لى أمران لا أستطيع أن أحيط بهما تماماً من حيث جسامة المدى أو دقة التفاصيل فلا عجب أن يتلون حكمى عليهما بما يتركه كل منهما فى نفسى من أثر على التعاقب فأنا أفهم المجموع قياساً على فهمى الأجزاء . وحين لا نرى من مسألة إلا جانبا واحداً فطبيعى أن أحكامنا عليها تتناقض من وقت لآخر تبعا لما يتكشف لنا منها فى ضوء السياسة والأخلاق ، تماماً كما تتناقض أحكامنا مع أحكام الغير . أما إذا رأينا المسألة برمّتها دفعة واحدة رؤيتنا للمسائل الحسابية مثلا فلن نجد اثنين يختلفان فى حكمهما على هذه المسألة ولن نجد أحداً يغير من رأيه فيها » .

قال الأمير : « كفانا من الحياة بشاعتها ، فلا نزيد من بشاعة الحياة بهذه المشاحنة المريرة ، وحسبنا ما كان بيننا من جدل دقيق . لقد اشتغلنا بالبحث عن السعادة ، ولكل منا حظه من فرحة النجاح أو خيبة الفشل . فالواجب يقضى إذن بأن نتعاون فيما أقدمنا عليه . إنك لا شك تتسرعين بمهاجمة الزواج فى ذاته لما ترينه من تعس المتزوجين ، ولكن ألا يدل شقاء الحياة كذلك على أن الحياة ليست نعمة من نعم السماء ؟ لا بد من عبور الدنيا ، إن بالزواج وإن بغير الزواج » .

فأجابت نكاية.: « إن طريقة تعمير الدنيا ليست من شأنى ولست أفهم اهتمامك أنت بها . ولست أرى شرًّا فى أن يموت الجيل الحاضر بغير خلف يرث مكانه على الأرض، ونحن الآن لا نبحث عن سعادة العالم بل نبحث عن سعادتنا » .

الفصل التاسع والعشرون

مناظرة الزواج تستأنف

قال الرأس إيلاس : « إن صحة الكل لا معنى لها إلا صحة الأجزاء جميعها . وإذا كان الزواج نافعاً للإنسانية فى مجموعها فواضح أنه نافع كذلك لأفراد الإنسانية كل على حدة . فإذا لم يكن الأمر كذلك وكان القيام بهذا الواجب الضرورى الدائم مدعاة للشقاء فلا بد من تضحية بعض الأفراد ليسعد الآخرون . وفى تقديرك لحالة الزواج وحالة الوحدة ما يدل على أن أسباب الشقاء فى الزواج عرضية يمكن تجنبها ، أما أسباب الشقاء فى الوحدة فملازمة وأكيدة إلى حد عظيم .

« ولا مناص لى من الاعتقاد بأن الحكمة وصفاء النفس كفيلان بإسعاد الزواج . وسر الشقاء بوجه عام غباوة البشر . وهل ننتظر غير الخيبة والندم من اختيار يتم فى نزق الشباب وفى جموح الشهوة بلا تدبر ولا تبصر بعواقب الأمور ولا بحث عن الانسجام فى الآراء وفى العادات أو تحقق من سلامة التفكير أو خلوص العاطفة ؟

« إن أكثر الناس يتزوجون على هذا المنوال . يلتقى الفتى والفتاة بمحض المصادفة أو يدبر بينهما اللقاء ، فيتبادلان النظرات ويتبادلان المجاملات ثم يعود كل منهما إلى داره يحلم بالشخص الآخر . ولا يجدان إلا القليل مما يشغل البال أو يصرف النظر فيحسان بالوحشة إذا افترقا ويحسبان أن سعادتهما فى التلاقى فيتزوجان ، وعندئذ يتكشف لهما ما خبأته عنهما الرغبة العمياء ، فيقضيان الحياة فى شجار متصل وتمتلئ نفساهما بالقسوة يوماً بعد يوم .

« ومثل هذا الزواج الباكر يؤدى إلى التنافس بين الآباء والبنين ، فالولد يحرص على التنعم بأطايب الدنيا قبل أن يتركها له أبوه ، والحياة لا تتسع لإرضاء الجيلين معاً والبنت تتفتح كالزهرة المشرقة قبلما ترضى أمها بالذبول ، وهكذا تضيق كل منهما بالأخرى .

« ولا شك أن كل هذه النكبات يمكن تلافيها إذا تروى الناس ولم يتعجلوا الزواج ، فالأناة لا بد منها للاختيار النهائى . وفى مرح الشباب وتعدد ألوانه ما يجعل الحياة محتملة بغير شريك . ومضى الزمن يضاعف الاختبار وسعة الاختبار تضاعف فرص التقصى والاختيار . فإن لم تكن للأناة منفعة ما فإن لها مزية واحدة محققة على الأقل وهى أنها تجعل الآباء يكبرون الأبناء بسنوات عديدة » .

قالت نكاية : « إن ما تقصر دونه مداركنا وما لا يدخل تحت اختبارنا لا سبيل إلى معرفته إلا بأقوال الآخرين . ولقد بلغنى أن الزواج فى سن متأخرة لا يفضى إلى السعادة حقا . وهذا أمر أجل من أن نهمله وكثيراً ما عرضته على من توسمت فيهم أصالة الرأى وسعة العلم وصدق الملاحظة ، فاتفقوا على أن من الخطر أن يجعل الرجل أو المرأة مصيره معلقاً بيد الطرف الآخر بعد أن تتكون لكل منهما آراؤه وترسخ عاداته وبعد أن يختار كل منهما دائرة أصدقائه ويحدد مجرى حياته وفقاً لمنهاج مضبوط ويرضى كل منهما بآماله فى الحياة .

« ويندر أن نجد شخصين خاضعين لتصاريف المصادفة يلتقيان فى طريق واحد ، وقلما نجد من يرضى بتغيير سبيله التى ألفها وأحبها بحكم العادة . وحين تزول خفة الشباب ورعونته ليحل محلهما النظام والعيش الرتيب وتجىء الكبرياء التى تجد فى التسلم عاراً ، والعناد الذى يجد اللذة فى النضال والزمن الذى يفعل فعله فى معالم الإنسان كفيل كذلك بتحريف العواطف وتثبيت العادات ، مهما يكن تقدير كل لصاحبه قويا ورغبته فى إرضائه أكيدة . والعادات المتأصلة لا يسهل كسرها ، ومن يحاول

تغيير مجرى حياته إنما يحاول عبثا فى أكثر الأحوال ،. فكيف نستطيع إذن أن نفعل بالغير ما نعجز عن فعله لأنفسنا فى أكثر الأحوال ؟ »

فقاطعها الأمير قائلا : « وكذلك لا ريب تحسبين أن الناس ينسون الأساس الأول فى الاختيار أو يهملونه . فإن أنا رأيت أن أتخير لنفسى زوجا فأول ما أتطلبه فيها أن تنصاع لصوت العقل » .

قالت نكاية : « هذا ما ينخدع به الفلاسفة . فى الحياة ألف موضع للخلاف لا يستطيع العقل له حلا . نعم إن فى الحياة ألف مسألة يحار فيها المنطق وتمتنع على بحث الباحثين ، ألف مسألة تتطلب الإنجاز العملى ولا تحتمل النقاش الطويل . تدبر أحوال الناس تجد أن بينهم قلة ضئيلة تستطيع حقا أن تبت فيما يعرض لها من أمور تافهة كانت أو جليلة بتًّا يستند إلى فهم للموقف واضح . ولو أن هناك زوجين قضى عليهما بأن يبتا كل صباح فى جميع تفاصيل حياتهما اليومية بتًّا بنى على العقل لكان هذان الزوجان أشقى من فى الوجود .

« إن من يتزوجون فى سن متأخرة ينجون غالباً من عدوان بنيهم ، ولكن هذه المزية تضيع إذا ذكرنا أنهم كثيراً ما يتركون بنيهم لرحمة الأوصياء قبلما تكتمل رياشهم ويتم تعليمهم ، فإن لم يحدث ذلك ماتوا قبل أن يروا فلذات أكبادهم فى تضج الرشاد أو فى قمة المجد .

« ولقد يأمنون حقًّا جانب بنيهم ، ولكنهم لا يرجون فيهم كثيراً وهم يفقدون متعة الحب الباكر دون أن يعوضهم عن ذلك شىء ، وتضيع منهم فرصة التآلف والانسجام حين تكون طباعهم فى مرونتها الأولى وعقولهم فى نضارة الشباب تنطبع عليها المؤثرات الجديدة ، فتقضى طول المعاشرة على أسباب الخلاف كما هو الشأن فى الأجسام اللدنة ، تتشكل سطوحها بدوام الحك والتآكل ليناسب أحدها الآخر .

« ويقينى أن من يؤخرون زواجهم ينعمون ببنيهم أكثر من سواهم أما من يعجلون به فينعمون بشركائهم فى الحياة » .

قال الرأس إيلاس : « لو أن النعمتين اجتمعتا لشخص واحد لتحققت جميع أمانيه . ولعل فى حياة الإنسان عمراً يحقق فيه الزواج السعادتين جميعاً ، عمراً لا هو بالعاجل فيفسد على الآباء إحساسهم بالأبوة ولا هو بالآجل فيفسد على الأزواج نعيمهم بزوجاتهم » .

فأجابت الأميرة : « إن كل ساعة تمر بى تثبت فى يقينى صدق ماقاله عملاق من أن الطبيعة تبعثر نعمها ذات اليمين وذات اليسار . فالأمور التى تذكى فى الإنسان الأمل وتحرك فيه الرغبة من شأنها أن يتلاشى بعضها كلما اقتربنا من سواه . وفى الحياة من متناقض الخيرات ما يجعل من المحال علينا أن نظفر بالنقيضين معا ، ولقد نسرف فى الحرص فنجد طريقنا بين النقيضين ، ولكن هذا الطريق الوسط لا يدنينا من أحدهما وهذه ثمرة الروية الطويلة أسوقها إليك وهى صادقة فى أكثر الأحايين : إن من يحاول أن يتجاوز حظ البشر خائب فى كل ما يسعى إليه . فلا تمن نفسك بانتهاب اللذات المتعارضة ، واختر لنفسك من النعم التى تعرض لك وارض بهذا المصير ، فما من أحد يستطيع أن يظفر بثمار الخريف وهو بعد ينتشق من زهور الربيع ، وما من أحد يستطيع أن يملأ كأسه من منبع النيل ومن مصبه جميعاً » .

الفصل الثلاثون

عملاق يدخل ويغير مجرى الحديث

وهنا دخل عملاق وقاطعهما فقال الرأس إيلاس: « اسمع ياعملاق ، لقد كانت الأميرة تروى على منذ هنيهة مأساة الحياة الخاصة ، لقد أوشك اليأس أن يقعدنى عن متابعة البحث » .

فقال عملاق : « يخيل إلى أن سعيك لمعرفة الحياة السعيدة قد ألهاك عن الحياة ، فأنت تجوب أطراف مدينة واحدة ومهما بلغت هذه المدينة من الاتساع واختلاف الوجوه فهى لن تأتيك بجديد ، وإنك لتنسى أنك فى أمة اشتهرت بين أمم للتاريخ الأول ببأس أبنائها وحكمتهم ، وإنك فى بلد تبلج فيه نور العلم قبل أن يتبلج فى سواه ، ومنه أضاء على العالمين ، بلد لا نعرف غيره مهداً للحضارة أو الفنون العملية .

« لقد خلف قدماء المصريين تراثاً خالدا ينبئ بالقوة والمثابرة ، تراثا لا شك يتضاءل أمامه كل ما للأوربيين من مجد . فخرائب عمارتهم هى المدرسة التى يتعلم فيها البناة المحدثون ، وإننا لنرى ما أبقى عليه الزمن من آثار فنرجم بما قد عصف به ولو على وجه التقريب » .

قال الرأس إيلاس : « إن فضولى لا يدفعنى كثيراً إلى زيارة الأحجار المكدسة أو أكوام التراب ، فأنا أتقصى حال الإنسان . وما جئت هنا لأدرس بقايا المعابد أو لأختنق فى السراديب المعتمة ، بل جئت لأستعرض وجوه الحياة الحديثة على اختلافها » .

قالت الأميرة : « إن شواهد الحاضر تستوجب التفاتنا ، وإنها لأهل لذلك الالتفات . فما شأنى بأطلال الماضى أو بأبطال التاريخ

نعم ، ما شأني بأزمان لن تعود وبأبطال عاشوا وماتوا فى ظروف من الحياة تختلف عن ظروف حياتنا الراهنة ؟ »

فأجاب الشاعر قائلا : « لا سبيل إلى معرفة الأشياء إلا بدراسة آثارها ، ولا سبيل إلى فهم الإنسان إلا بالوقوف على أعماله ، وبذلك نعرف ما أملته العاطفة وما أوحى به العقل ، وبذلك نهتدى إلى أقوى الدوافع التى تحدد سلوك الإنسان . وإذا شئنا أن نحسن الحكم على الحاضر فلا بد من موازنته بالماضى ، فالحكم أيا كان نسبى ، والمستقبل لا سبيل إلى معرفته ، والواقع هو أن الناس لا يفكرون فى الحاضر كثيراً ، لأن ذكريات الماضى وآمال المستقبل توشك أن تملأ كل فراغ فى حياتنا . نحن نفرح ونحزن ، نحن نحب ونبغض ، نحن نأمل ونتوجس . أما الفرح والحزن فجذورهما فى الماضى . وأما الأمل والتوجس فمصدرهما المستقبل ، حتى الحب والبغض من عمل الأمس لأن لكل معلول علة تسبقه .

« فالحاضر إذن ثمرة الماضى ، وطبيعى أن نبحث عن مصدر ما ننعم به من سعادة أو نشقى به من آلام . فإذا كان مسعانا لتيسير أمورنا الخاصة فليس من الحكمة تجاهل الماضى ، وإذا كنا أمناء على مصائر الغير فليس من العدل إهماله ، إن الجهل المقصود جريمة ومن يرفض أن يتعلم كيف يدفع الأذى لمسئول عن ذلك الأذى .

« ولم أر من وجوه التاريخ ما هو أمتع للنفس من تطور البشرى ، ونمو العقل درجة درجة ، وتقدم العلم باطراد ، وتعاقب العرفان والجهالة على بنى الإنسان ، فهما نور البشرية وظلامها ، انقراض الفنون وبعثها وثورات الفلاسفة ، وإذا كان الأمراء يهتمون بتاريخ المعارك والغزوات على وجه التخصيص ، فالواجب يقضى بالاهتمام بالفنون النافعة منها والجميلة على حد سواء ، فمن أوتوا الممالك ليحكموها أمناء على تنوير أذهان الرعية .

« والمثل العملى أفعل فى النفس من كل تعليم نظرى ، فالحا

مدرسة الجندى ، والرسام لا بد له من محاكاة صور الغير . وفى هذه الحدود أجد أن الحياة الفكرية لها السيادة على الحياة العملية . فالأعمال الباهرة قلما يراها الناس ، أما إنتاج الفن فى متناول كل من يبغى الوقوف على إنتاج الفن » .

« وحين تقع العين على أثر ذى بال أو يستيقظ الخيال إلى عمل من الأعمال نادر يتجه العقل الناشط أولا إلى تفهم الطريقة التى تم بها قيام هذا الأثر ، أو إنجاز هذا العمل . وهنا تبدأ منفعة التفكير الحقيقية ، فنحن نوسع مداركنا بالأفكار الجديده ، ولقد ينجم عن ذلك أننا نهتدى إلى فن كان ثم ضاع ، ولقد نهتدى إلى إتمام مانقص من علم فى بلادنا . وأقل ما يمكن أن نصيبه من دراسة التاريخ أننا نقارن عصرنا بسالف العصور ، فنغتبط لما أدركنا من تقدم أو ننتبه إلى نقائصنا إن كانت بنا نقائص ، وهى الخطوة الأولى إلى الإصلاح » .

قال الأمير : « إنى على استعداد لرؤية كل ما يستحق الرؤية » .

قالت الأميرة : « وإنه ليسعدنى كذلك أن أتعلم عن عادات الأقدمين ما لم أكن أعلم » .

قال عملاق : « إن أفخم أثر من آثار المصريين وأدلها على عظمتهم هى الأهرام ، وهى أبنية من أضخم ما صنعته يد الإنسان شيدت قبل التاريخ ولا نعرف عنها إلا ماتوارثناه عن روايات الأولين ، وهو لا يرتقى إلى مرتبة العلم المحقق . وأكبر هذه الأهرام لا يزال قائماً لم تعد عليه يد زمن إلا قليلا » .

قالت نكاية : « فلنزر الأهرام غداً ، فقد سمعت بأمرها كثيراً ولن يهدأ لى بال حتى أراها من الداخل ومن الخارج رؤية العين » .

الفصل الحادى والثلاثون

زيارة الأهرام

فلما استقر رأيهم على ذلك خرجوا فى اليوم التالى لزيارة الأهرام ، وحملوا جمالهم بالخيام فقد اعتزموا أو يقيموا بين الأهرام حتى يرتوى منها فضولهم . وسعوا فى رحلتهم الهوينا ، كلما استوقفتهم عجيبة وقفوا يستطلعون ، ومن حين لآخر تمهلوا ليتحدثوا مع الأهلين ، ولقد شاهدوا من المدن مختلفها ، فبعضها مخرب وبعضها عامر بالسكان ، ولقد شاهدوا من الطبيعة أخضرها ووحشيّها .

فلما بلغوا الهرم الأكبر راعهم ما رأوه من اتساع قاعدته ومن ارتفاع قمته . وقد شرح عملاق لهم كيف اختير الشكل الهرمى لهذا البناء الذى أراده أصحابه أن يثبت إلى آخر الزمان ، وأوضح لهم أن تدرجه فى الصغر هو آية رسوخه ، فهوالذى حماه من عوادى الطبيعة ، فالزلازل ذاتها وهى أكبر مخرب فى الطبيعة لا تستطيع تحطيمه ، ولو أن ضربة نزلت بالهرم فحطمته لتحطمت القاهرة كلها أو أوشكت . وقاسوا أبعاد الهرم بعداً بعداً ، ثم ضربوا خيامهم عند سفحه . وفى اليوم التالى أعدوا العدة لولوج غرفه الخارجية ، وبعد أن استأجروا أحد الأدلاء صعدوا إلى المدخل الأول . وأطلت بيكوا صفية الأميرة فى الفجوة ثم تراجعت وهى ترتجف ، فسألتها الأميرة قائلة : « فيم خوفك يابيكوا ؟ » فأجابت السيدة : « لقد أخافنى المدخل الضيق وما رأيت من ظلام مرعب . إنى لا أجسر على دخول مكان لا ريب تسكنه الأرواح المضطربة . إن أصحاب هذه الأقباء الرهيبة لا شك ناهضون



أمامنا من رقدتهم الطويلة ، ولقد يسجنوننا معهم إلى أبد الآبدين ».
وفيما هي تتكلم تشبثت بجيد سيدتها .

قال الأمير : « إن كنت لا تخافين سوى الأشباح فأنا كفيل لك بالسلامة ، فالموتى لا ينزلون بأحد شراً ، ومن ووري قبره لا يخرج إلى عالم الأحياء » .

قال عملاق: « إن قولك ياسيدى الأمير بأن الموتى لا يخرجون إلى عالم الأحياء مناقض لما اتفقت عليه روايات الناس أجمعين فى كل أمة وفى كل زمان . فما من شعب إلا وعرف الأشباح وآمن بها ، تستوى فى ذلك الشعوب الناهضة والشعوب التى تعيش على الفطرة . ولولا صحة هذه الظاهرة لما آمن بها جميع الناس فى جميع أرجاء الأرض فيما نعلم . وهذه الشعوب المتباعدة لا يعرف بعضها البعض الآخر ، فاتفاقها فى هذا الرأى العجيب دليل على أنه وليد الاختبار ، فأمثال هذه العجائب لا تصدق إلا إذا أيدها الاختبار . وشك نفر من المكابرين المتفرقين لا يضعف ما للرأى العام من قوة ، ثم إن بعض من ينكرون وجود الأشباح بألسنتهم يرتجفون فرقاً إذا ما وطئوا منازلها .

« ولكنى لا أبغى بقولى هذا أن أضاعف مخاوف بيكوا . فليس فى الهرم ما يجعله مسكناً للأشباح أكثر من أى مكان آخر ، وليس فى أشباح الهرم ما يجعلها تسعى إلى إيذاء الأبرياء والأطهار أو ما يمكنها من ذلك . ودخولنا ليس فيه اعتداء على حرمتها ، فنحن لن نسلبها شيئاً مما لها ، فكيف إذن تغضبها زيارتنا ؟ » .

قالت الأميرة : « ياصديقتى بيكوا لا تجزعى . لسوف أتقدمك أنا فى السير ولسوف يمشى عملاق فى عقبيك ، وتذكرى أنك رفيقة الأميرة ، أميرة الحبشة » .

فأجابت السيدة : « لو أن سيدتى الأميرة ترغب فى موتى فلتختر لى ميتة غير هذه الميتة الشنيعة فأنا لا أحب أن أموت فى هذا الغار المرعب

ومولاتي تعلم أني لا أعصى لها أمراً ، فإن أمرت بدخولى دخلت ، ولكن دخولى سوف يكون دخولا لا خروج بعده . . »

ورأت الأميرة أن جزع وصيفتها قوى لا يجدى معه عتاب أو تأنيب فعانقتها ، وأمرتها بأن تبقى فى الخيمة ريثما يعودوا . ولم ترض بيكوا بهذا الوضع فذهبت تضرع إلى الأميرة أن تعدل عن هذه الجولة الرهيبة فى مخابئ الهرم ، فأجابتها نكاية قائلة : « إذا عجزت عن أن أعلم غيرى الشجاعة فلا أقل من أن أصون شجاعتى . فكيف أعدل عما جئت لتحقيقه وما جئت إلا لتحقيقه ؟ »

الفصل الثانى والثلاثون

دخول الهرم

١

نزلت بيكوا إلى الخيمة ودخل الباقون الهرم . ومروا بالدهاليز وشاهدوا الأقباء الرخامية وتمعنوا فى التابوت الذى قيل إن بانى الهرم قد أودع فيه . ثم جلسوا فى حجرة كبرى ليستريحوا قليلا قبل أن يقدموا على العودة .

قال عملاق : « لقد نعمنا الآن برؤية أكبر أثر من آثار البشرية بعد سور الصين العظيم. أما ذلك السور العظيم فالدافع إلى بنائه واضح، فهو الذى وقى أمة غنية مترفة تخشى غزوات البرابرة الذين زين لهم جهلهم بالفنون أن ينالوا بالسلب والنهب حاجاتهم التى أقعدهم ذلك الجهل عن نوالها ، فذهبوا من حين لآخر ينقضون على مواقع التجارة الآمنة انقضاض الطيور الجارحة على الطيور المستأنسة . وقد كان من وحشيتهم وسرعة غزوهم أن ظهرت الحاجة إلى بناء السور ، وقد كان من جهلهم أن ردهم على أعقابهم وحقق الأمن المرجو منه .

« أما الأهرام فلا نعرف سبباً وجيهاً جعل القدماء ينصبون هكذا فى بنائها ويتكبدون أضخم النفقات . فضيق حجراتها يدل على أنها لم تشيد لتكون ملجأ من الأعداء الظافرين ، والكنوز التى تحتويها الأهرام كان يمكن إخفاؤها بمثل هذا الإحكام دون حاجة إلى إنفاق هذه الأموال الطائلة كلها . ويخيل إلى أن بناء الأهرام قد تم ليرضى الخيال الذى يستبد بالحياة الإنسانية ويدفعها أبداً إلى عظائم الأمور . فمن أوتى كل ما يشتهى فى الحياة لا بد له أن يستنبط شهوات جدداً،

ومن استوفى حاجته من العمائر النافعة لا بد أن يبنى ليرضى غروره فيمتد بخياله إلى أقصى ما تملكه قدرة البشر حتى لا يجد فى نفسه فراغاً لرغبة جديدة .

« ورأى أن هذا البناء الشامخ دليل على قصور أسباب السعادة بين بناته . فالملك الذى لا حد لسلطانه ولا حد لثرائه لا يجد سبيلا لإرضاء شهوته إلى المجد وإزالة ملله فى الحياة إلا ببناء مثل هذا الهرم ، فرؤية الآلاف المؤلفة من التعساء يكدحون بغير طائل ويضعون الحجر فوق الحجر لغير ما غاية يدفع عنه سأم الشيخوخة . فيا من تضيقون بالحياة المألوفة وتتوهمون السعادة فى جاه الملوك ، وتحسبون أن الترف والجبروت يشبعان نهم النفس إلى كل جديد إلى يوم الممات ، انظروا إلى الأهرام واعترفوا بسفاهتكم » .

الفصل الثالث والثلاثون

محنة لم تكن تنتظر

ثم نهضوا وعادوا مجتازين الفجوة التى دخلوا منها ، وكانت الأميرة قد أعدت لصفيتها قصة طويلة ترويها عما رأت من سراديب مظلمة وحجرات باذخة وعما تركته فى نفسها الآثار المختلفة التى شاهدتها فى طريقها . ولكن ما إن بلغوا خيامهم حتى وجدوا أتباعهم جميعاً فى صمت حزين . أما الرجال فقد بدا الخجل والخوف فى عيونهم وأما النساء فجلسن فى الخيام باكيات .

ولم يحاول أحد منهم أن يتكهن بما قد حدث بل سألوا الجمع لفورهم فأجاب أحدهم : « ما إن دخلتم الهرم حتى هاجمتنا جماعة من الأعراب فلم نستطع المقاومة لقوتهم ولم نستطع الفرار لأن هجومهم كان مباغتاً . ولقد أوشكوا أن ينهبوا خيامنا ويسوقونا أمامهم سوق القطعان على نوقنا ، ولكنهم أحسوا بمقدم نفر من الفرسان الأتراك فولوا الأدبار وقد سبوا السيدة بيكوا ووصيفتها والأتراك يطاردونهم فى هذه اللحظة ، وأنا أعتقد أنهم سيعجزون عن إدراكهم » .

وغلب الأميرة الحزن والعجب جميعاً . أما الرأس إيلاس فقد تملكته سورة الغضب فأمر أتباعه بأن يتبعوه واستعد لمطاردة اللصوص وقد جرد حسامه ، ولكن عملاقاً قال له : « لا نفع يا مولاى من العنف ولا من الإقدام . إن الأعراب يركبون جياداً مدربة على الكر والفر ، أما نحن فلا نملك إلا دواب تصلح لحمل الأثقال . ولو قد تركنا موضعنا لفقدنا الأميرة كذلك دون أن نسترد السيدة بيكوا » .

وبعد قليل عاد الأتراك بعد أن أفلت منهم اللصوص . فأنشأت الأميرة تندب من جديد وأوشك الرأس إيلاس أن يرميهم بالجبن ، ولكن عملاقاً قال إن فرار الأعراب لا يزيد من محنتهم ، فلربما قتل الأعراب أسيراتهم حتى لا يسلموهن .

الفصل الرابع والثلاثون

يعودون إلى القاهرة بغير بيكوا

لم يبق فى بقائهم نفع فعادوا إلى القاهرة نادمين على فضولهم ناحين بالملامة على الحكومة وإهمالها ، باكين تقصيرهم فى كراء حارس يحرس بيكوا عند دخولهم الهرم ، وذهبوا يعددون الوسائل التى ينبغى أن تتخذ لتجنب ذلك الحادث المشئوم ويؤكدون عزمهم على استرجاعها ولكنهم وقفوا عاجزين فما وجدوا إلى التصرف سبيلا .

واعتكفت نكاية بغرفتها وذهبت تابعاتها يعزينها عن فقد بيكوا قائلات إن لكى بشرى قدره وقضاؤه وإن السيدة بيكوا قد استوفت حقها من السعادة فى حياتها الماضية فليس غريباً أن يسوء حظها فى الحياة . وتمنت النسوة لبيكوا الخير أينما كانت وأينما رحلت كما تمنين للأميرة أن تجد لنفسها صفية أخرى تملأ ما تركت بيكوا من فراغ .

ولم تجب الأميرة فمضين فى عبارات العزاء، ولكن حزنهن على فقدان صفية الأميرة لم يكن بالحزن الصادق .

وفى اليوم التالى قدم الأمير إلى الباشا مذكرة بالفاجعة التى نزلت به وملتمساً يرجو به رد الأمور إلى نصابها ، وقد وعد الباشا بمعاقبة اللصوص ولكنه لم يحرك ساكناً للقبض عليهم . وما أستطاع أحد أن يتقدم بأوصاف كافية تعين الشرطة على اقتفاء أثر الأعراب .

واتضح بعد قليل أن السلطات لارجاء فيها . فالحكام قد تعودوا أن يسمعوا بجرائم كثيرة لا قبل لهم بمعاقبة مرتكبيها وبأضرار عديدة لا قبل لهم بإزالتها عمن تنزل بهم ، فأصابهم تراخ وقعود وغدوا ينسون الشكايات

لحظة أن يخرج الشاكون من دواوينهم .

لذلك حاول عملاق أن يستأجر بعض العملاء ليتقصوا له الأنباء . وقد جاءه عدد منهم عظيم وكلهم يدعى المعرفة الصادقة بمواقع الأعراب الحقيقية، ويزعم أن له برؤسائهم صلة منتظمة ويعد باسترجاع بيكوا . وقد زود بعضهم بنفقات الرحلة فانطلقوا ولم يعودوا ، وأجزل العطاء لبعضهم الآخر لقاء أنباء تبين بعد أيام أنها زائفة . ولكن الأميرة لم تترك سبيلا إلا سلكته، مهما بدا قليل النفع . وكانت تحيا بالأمل، فكلما خابت طريقة جربت سواها ، وكلما عاد رسول ومعه خيبة مسعاه أطلقت سواه إلى موقع جديد لتتبع الأعراب .

ومر شهران ، وبيكوا لايدرى أحد من شأنها شيئاً. وذوت الآمال التى كان كل منهم يذكيها فى قلب صاحبه . ولما رأت الأميرة أنها قد استنفدت كل مافى جعبتها من وسائل البحث انتابها يأس قاتل ، وذهبت تلوم نفسها الليل والنهار على ماكان منها من تقصير حتى أذنت لبيكوا أن تتخلف عن الجماعة . وكانت تقول : « لولا أن حبى لها قد غلب سلطانى عليها لما جرؤت بيكوا على أن تتحدث عن مخاوفها . وقد كان ينبغى أن تخشانى بيكوا أكثر مما تخشى الأشباح . كان ينبغى أن تسكتها نظرة منى صارمة . كان ينبغى أن تصدع بأوامرى فوراً . كيف يغلب على هذا التساهل الأحمق ؟ كان ينبغى أن أتكلم وألا أسمح لها بالكلام » .

قال عملاق : « أيتها الأميرة العظيمة ، لاتأسفى لسجاياك الحميدة ، ولا تلومى النفس على أمر وقع مصادفة . إن عطفك على مخاوف بيكوا كان عطفاً كريماً . إننا حين نلتزم حدود الواجب إنما نفوض إلى الله أمرنا وهو الذى يصرف بقوانينه شئوننا ، وحكمته لا ترضى لطائع أن يعاقب على طاعته فى النهاية . فإذا كسرنا القوانين الطبيعية أو الأخلاقية التى فرضت علينا طمعاً فى خير نجنيه فإننا بذلك نستغنى

عن الحكمة الإلهية ونتحمل نتائج فعالنا جميعاً . والإنسان لا يفهم إلى اليوم الصلة بين الحوادث وأسبابها حتى يجازف بعمل الشر ليحصد خيراً . أما اتباع الطريق المشروع فهو الذى يعوضنا عن خيبتنا بالجزاء الآجل ، فإذا لم نثق إلا بعقولنا وحاولنا اختصار الطريق إلى الخير بتخطى الحدود المعروفة القائمة بين الخير والشر شقينا ولو أصبنا النجاح ، لأن خروجنا عن الطريق السوى يطاردنا ، فإذا ما ساءت العقبى كانت خيبتنا أمر وأدهى . فما أتعس رجلا اصطلح عليه فى وقت واحد الإحساس بالخطيئة والإحساس بالمحنة التى أنزلتها به الخطيئة .

« فتدبرى يامولاتى الأميرة كيف كانت حالك تكون لو أن السيدة بيكوا رجت ملازمتك فأمرتها بالتخلف فاختطفها البدو ، أو تدبرى كيف كانت حالك تكون لو أنك أرغمتها على دخول الهرم فقضى عليها جزعها تحت بصرك » .

فقالت نكاية : « لو أن شيئاً من هذا حدث لما احتملت الحياة إلى اليوم ، ولعذبتنى الذكرى ، ذكرى قسوتى ، حتى ضاع صوابى ولأبغضت نفسى وذبل جسدى حتى الممات » .

قال عملاق : « لقد أحسنت التصرف وهذا هو الجزاء على أقل تقدير ، فما أتيت شيئاً تندمين على عواقبه » .

الفصل الخامس والثلاثون

فقدان بيكوا يضني الأميرة

وهكذا هدأت نفس نكاية فعرفت أن كل الآلام تحتمل خلا ماترتب على الخطيئة ، فزال عنها حزنها العاصف الآكل وحل محله حزن رفيق تأملاته سوداء . وكانت تجلس طيلة النهار وتسترجع كل كلمة فاهت بها صديقتها بيكوا وكل عمل أتته ، وتجمع كل ما كانت بيكوا تحبه بعناية لا نظير لها ، حتى توافه الأشياء ، لعلها أن تذكرها بصاحبتها ، احتفظت فى ذاكرتها بكل ما كانت هذه الغائبة تقول أو تفعل ، وقدسته تقديساً كأنه من نواميس الحياة ، وكلما عرض لها أمر كان همها الأول والأخير أن تتدبر ما كان عساه أن يكون رأى بيكوا فى هذا الأمر العارض .

ولم تعلم النسوة اللائى يسهرن عليها عن حالها شيئاً ، لذلك كانت تتحدث إليهن بتحفظ وحذر . وقل فضولها وانصرفت عن الالتفات إلى ما يحدث فقد ارتاحت إلى الصمت ورغبت عن الكلام . أما الرأس إيلاس فقد حاول أن يسكن جراحها أولا ، ثم حاول أن يسرى عنها فاستأجر لها جماعة من الموسيقيين يعزفون فى حضرتها ، فتستمع إلى أنغامهم ولكنها لا تسمع شيئاً . وكذلك استقدم الرأس إيلاس لها نفراً من الأساتذة لتتلقى عليهم مختلف الفنون ، فكانت تنصت إلى محاضراتهم ولا تفهم منها شيئاً فيعيدون الشرح مرة [بعد مرة . وفقدت نكاية كل لذة فى الحياة ، وضاع منها طموحها الأول . وكان ذهنها

ينصرف إلى شئون اليوم شيئاً قليلا ، ولكنه كان يعود أبداً إلى الصورة الحائمة فى خلدها ، صورة صديقتها بيكوا .

وكانت كل صباح تستحث عملاقا للبحث عن بيكوا الضائعة ، فما إن يعود ليلا حتى كانت تستطلعه الأخبار . فلما وجد أنه لا يأتى لمولاته بجواب شاف قلت رغبته فى المثول بين يديها . ولاحظت الأميرة تخلفه فأمرته بالحضور ، ولما حضر أهابت به قائلة : « ما حسبتك تخطئ التقدير فتخال لهفتى غضباً أو تظن أنى أتهمك بالاهمال لأن خيبة مسعاك تحز فى نفسى حزًّا . وأنا لا أعجب كثيراً لانصرافك عنى ، فأنا أعلم أن الناس يضيقون بالتعساء ويتجنبون عدوى البأساء . فالشكوى تضنى السعداء والبائسين على السواء . فمن ذا الذى يفسد لحظات الهناء التى تجود بها الحياة لنا وهى قليلة بأحزان الآخرين ؟ ومن ذا الذى يفتح صدره لآلام الغير وهو يرزح تحت عبء من أحزانه الخاصة ؟

« لن تزعج نكاية أحداً بأحزانها بعد اليوم ، فلقد انتهى بحثى عن السعادة ، ولقد وطنت النفس على اعتزال العالم ، عالم الغرور والأباطيل ، ولسوف أختفى فى عزلة كاملة ، ولا شأن لى إلا تهدئة خواطرى وإزجاء نهارى بساذج الأعمال ، حتى تتطهر نفسى جملة من كل ما يشتهيه الناس وأنتقل إلى الدار الأخرى التى يسعى إليها الأنام حثيثاً ، وهناك أرجو أن أنعم من جديد بصحبة بيكوا » .

قال عملاق : « لا تفسدى تفكيرك بقرارات لا تقبل العدول ولا تضاعفى حمل حياتك بهموم جديدة . فلسوف تنسين بيكوا وتبقى آلام الوحدة ، وإن كنت قد فقدت من متع الحياة متعة فهذا لا يبرر انصرافك عن بقية المتع » .

قالت الأميرة : « لم تعد لى بعد بيكوا متعة تبقى أو متعة تضيع لقد فقدت من أحبها ومن أثق بها فأى أمل لى من بعدها ؟ إنى

أبحث عن السعادة الحقيقية ، فلنفرض أن زينة الحياة اجتماع المال والمعرفة والطهارة . أما المال فقيمته فى إعطائه للآخرين وكذلك قيمة المعرفة فى نقلها للغير ، فلمن أجزل المال ولمن أحمل المعرفة بعد أن فقدت صديقتى الوحيدة ؟ لم يبق لى إلا الطهارة وبها وحدها أستمد نعيمى بغير حاجة إلى رفيق ، وحياة الطهارة يمكن تحقيقها فى حياة الوحدة » .

فأجاب عملاق: « لن أجادل مولاتى الآن فى الوحدة وأثرها فى الطهارة ، وإنما أذكرها باعتراف الناسك الورع . لسوف تشتهين العودة إلى العالم بعد أن تنسى صاحبتك » . قالت نكاية: «وهذا لن يكون . فكلما عشت لأرى الرذيلة والحماقة تذكرت سجاياها الحميدة ، تذكرت صراحتها الفياضة وخضوعها الكريم وأمانتها على السر » .

قال عملاق : « إن العقل إذا دهمته نكبة مفاجئة ليشبه فى حاله حال الناس عند بدء الخليقة، فقد ورد فى الأساطير أن الليل الأول هبط عليهم فخالوا أن النهار لن يطلع من جديد . كذلك نحن ، تتجمع حولنا سحب الهم فتحجب عن أبصارنا ما وراءها ولا نرى إلى تفرقها سبيلا . ولكن النهار يعقب الليل والهم مهما استطال فن بعده الراحة لاشك فيها . ومن يرفض أن يتعزى عن آلامه كان كأولئك المتوحشين الذين فقأوا عيونهم بمجيء الظلام. إن عقولنا كأجسامنا فى تغير متصل، وفى كل ساعة نخسر شيئا ونكسب شيئاً، وجسامة الخسران تؤذى العقل والبدن جميعاً ، ولكن الطبيعة كفيلة برد ما كان إذا كانت ينابيع الحياة لا تزال فياضة . والبعد له فى العقل ما له فى العين من أثر ، ومادمنا نطفو فى تيار الحياة فكل ما نتجاوزه يتضاءل وكل ما نشرف عليه يزداد حجماً فلا تجعلى نبع حياتك يأسن ، فلو قد ركد نبع حياتك لكثرت فيه الأوحال . اسبحى كما كنت تسبحين فى تيار الحياة . إن يبكوا سوف

تختفى من خيالك رويداً رويداً . ولسوف تلتقين فى طريقك بسيدة أخرى تصطفينها أو تتعلمين كيف تندمجين فى الناس جميعاً » .

وقال الأمير : « كل ما نطلبه إليك ألا تيأسى قبلما نستنفد جميع أسباب العزاء ، إن البحث عن السيدة المسكينة لا يزال جاريا ، ولسوف نأمر بتشديده إن وعدت بالتريث عاماً آخر قبل أن تتخذى القرار الأخير » .

ووجدت نكاية أن هذا الرأى يتفق مع العقل فوعدت أخاها بما طلب ، وما استخلص أخوها منها هذا الوعد إلا بناء على مشورة عملاق . ولم يكن لدى عملاق أى أمل صادق فى استرداد بيكوا ، ولكنه رأى أن الأميرة سوف تعدل عن فكرة الاعتزال لو عاشت فى المدينة عاماً آخر .

الفصل السادس والثلاثون

الأميرة لا تنسى بيكوا بل تتجدد أحزانها

لما رأت نكاية أن البحث عن صفيتها يدور قدر المستطاع وكانت قد عاهدت أخاها على تأجيل اعتكافها عاماً آخر ، انصرفت درجة درجة إلى شئون الدنيا ومسراتها المألوفة . وفرحت برغمها لانجلاء الغمة عنها ، وكانت تجد نفسها من حين لآخر منصرفة عن ذكراها أتم انصراف فتغضب لذلك ، فقد أزمعت الأميرة على ألا تنسى صديقتها الوحيدة فى الحياة .

ثم حددت لنفسها ساعة من ساعات اليوم معينة تتجه فيها بقلبها إلى بيكوا وتتذكر سجاياها الحميدة ، ولقد مرت بها أسابيع حقاً كانت إبانها تنزوى فى الوقت المحدد بانتظام ثم تعود كاسفة البال عليها آثار بكاء طويل . ولكنها أخذت تتحرر رويداً رويداً من هذا القيد ، فإن جد لها من الأمور أمر ذو بال أذنت له أن يصرفها عن نحيبها اليومى . ثم استسلمت لصغار الأمور كذلك ، وبدأت تنسى ما كانت تذكره على مضض منها ، وأخيراً تحررت نهائياً من واجبها فلم تعد تندب الغائبة كل يوم فى الساعة التى حددتها لذلك .

ولكن حبها الخالص لبيكوا لم ينقص بمرور الزمان ، فقد كان يذكرها بها ألف حادث وحادث ، وكلما احتاجت إلى أمر من الأمور التى لا يؤتمن عليها إلا الأصدقاء تجدد حزنها على بيكوا . لهذا رجت نكاية عملاقا ألا يقصر فى بحثه أى تقصير وأن يمضى فى تقصى أنباء صاحبتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى تعلم بأن ما هى فيه

من عذاب لا يرجع إلى تكاسل أو إهمال . وكانت تقول : « ماذا نجني من بحثنا عن السعادة إذا كانت طبيعة الحياة تجعل من السعادة ذاتها علة الشقاء ؟ ولم نسعى إلى بلوغ شيء لا سبيل إلى استبقائه ؟ لن أنشد بعد اليوم حباً مهما كان صافياً أو كمالا مهما كان آسراً خشية أن أفقده فأفقد بفقدانه بيكوا من جديد » .

الفصل السابع والثلاثون

أنباء بيكوا تبلغ الأميرة

بعد سبعة شهور عاد رسول من الرسل الذين خرجوا للبحث عن بيكوا يوم وعدت الأميرة بالانتظار ، عاد من حدود النوبة بعد جولات كثيرة لا نفع فيها يقول إن بيكوا فى قبضة سيد من سادة الأعراب يملك قلعة أو حصنا عند تخوم مصر ، وإن ذلك السيد العربى الذى يعيش من النهب على استعداد لإعادتها مع خادمتها لقاء مائتى أوقية من الذهب .

ولم يناقش أحد مبلغ الفدية ، وانتاب الأميرة فرح لا مزيد عليه حين علمت بأن صفيتها لا تزال على قيد الحياة وأن فى المستطاع استردادها لقاء هذا القدر الزهيد من المال . ورأت ألا تضيع لحظة واحدة فى استعادة سعادة بيكوا وسعادتها معا فرجت أخاها فى أن يزود الرسول بالقدر المطلوب ويوفده من جديد . وحين استشير عملاق أبدى شكه فى صدق ما روى الراوى وأعلن ريبته فى وفاء السيد الأعرابى قائلا إن الثقة المطلقة به قد تؤدى إلى احتفاظه بالمال والرهائن جميعاً . كذلك قال إن من المجازفة أن يضع أحد نفسه فى قبضة الأعرابى بدخول حرمه كما أن خروج ذلك المغامر إلى بطن الوادى يجعله فى متناول قوات الباشا ، وعملاقاً لا ينتظر منه أن يفعل ذلك .

وقد جعل نقص الثقة عند الفريقين الوصول إلى اتفاق أمراً عسيراً . ولكن عملاق كلف الرسول بعد شىء من التروى أن يقترح على السيد العربى إرسال بيكوا بين عشرةٍ من الفرسان إلى دير القديس أنطونيوس

بالوجه القبلى ، وهناك يستقبلها عشرة من فرسان الأمير يؤدون فديتها ويطلقون سراحها .

وكانوا يعتقدون بأن هذا الاقتراح سوف يقبل . ولذا بدءوا رحلتهم إلى الدير فوراً حتى لا يضيعوا أى وقت . وحين بلغوا الدير استأنف عملاق رحلته بصحبة الرسول إلى قلعة السيد العربى . ورغب الرأس إيلاس فى مرافقتهما ولكن أخته وعملاقاً لم يرضيا بذلك . وقد قام السيد العربى بواجبات الضيافة نحو الرجلين اللذين سعيا إلى مكمنه كما تقضى قوانين قومه ، وبعد أيام قلائل رحل بيكوا وخادمتها إلى المكان المحدد بطريق يعرفه لا يتعب الراحلين ، وهناك تسلم المال الذى اتفق عليه ورد بيكوا إلى حريتها ومن ثم إلى أصحابها ، ووعد أن يحرس الجمع إلى القاهرة بشخصه ليقيهم شر اللصوص وعدوانهم .

وتعانقت الأميرة وصفيتها عناقاً حاراً تعجز عن وصفه الألفاظ ، وخرجتا معاً إلى خلوة لتذرف كل ما معهما من دموع الشوق ولتتبادلا عبارات الود والشكران ، وبعد ساعات عادتا إلى حجرة الطعام فى الدير حيث سأل الأمير بيكوا أن تقص قصتها فى حضرة الرهبان ورئيسهم .

الفصل الثامن والثلاثون

مغامرات السيدة بيكوا

قالت بيكوا : « لقد دلك أتباعك أيها الأمير عن الوقت الذى اختطفت فيه وعن الطريقة التى اختطفت بها . وقد فاجأتنى الواقعة أول الأمر فلم أخف ولم أحزن بل تملكنى الذهول ، وزاد من اضطرابى ما كان من سرعة فرارهم بنا أمام الفرسان الأتراك وما كان من عجيج عظيم فى أثناء الفرار . وقد بدا أن الأتراك يئسوا من إدراكنا أو خافوا من اللحاق بمن كانوا يطاردون فعادوا قافلين .

« وحين ألفى الأعراب أنهم بمنجاة من كل خطر أبطأوا فى سيرهم ، ولم تكن تشغلنى مشاغلهم فبدأت أنزعج لما أنا فيه من حال . وبعد وقت ما بلغنا نبعاً وارف الأفياء فى أحد المراعى فوقفنا فترجلنا وجلسنا على الأرض وأعطينا من المرطبات ما كان سادتنا يتناولون . وقد أذنوا لى أن أنفرد بخادمتى بعيداً عن جماعتهم ، ولم يحاول أحد أن يطيب نفسى أو يسىء إلىّ بكلمة. وأخذت أحس بجسامة شقائى لأول مرة ، وجلست البنتان تبكيان فى صمت ، وترفعان إلىّ البصر من وقت لآخر تطلبان النجدة . ولم أكن أعلم عن مصيرنا شيئاً وما استطعت أن أرجم بمكان أسرنا أو أن أهتدى إلى شىء يبعث فينا الرجاء . لقد كنت فى قبضة فريق من اللصوص والمتوحشين فلم أطمع فى رحمتهم ولم أستبعد عليهم أن يعبثوا بنا ماشاءت لهم شهواتهم وما شاءت لهم قسوتهم . ولكنى برغم ذلك عانقت خادمتى وذهبت أهدئ من روعهما قائلة إننا لم نر من أحد بعد سوى حسن المعاملة وإننا فى أمن على حياتنا لأن الأعراب فى أمن على حياتهم .

« وحين طلب إلينا أن نعتلي جيادنا من جديد تشبثت بي الخادمتان وأبتا أن يحال بيني وبينهما ، ولكني أمرتهما بأن يتنكبا عن كل مايغضب السادة الذين سقطنا في قبضتهم . وهكذا رحلنا بقية اليوم في أرض مهجورة لا مسالك فيها ثم بلغنا سفح تل في الليلة القمراء ، وهناك حط القوم رحالهم وضربوا خيامهم وأوقدوا نارهم وحيا الأعراب رئيسنا تحية تفيض بالحب والإخلاص .

« ثم كان استقبالنا في خيمة كبيرة حيث وجدنا بعض النسوة اللائي صحبن أزواجهن في الغزوة . وقدمت النسوة إلينا ما أعددن من عشاء ، فأكلت تشجيعاً لخادمتي لا رغبة في الأكل . وبعد أن رفعت الصحاف مدت البسط لنستريح . وكنت متعبة أرجو أن يخفف النوم آلامي فهذا شأنه مع البائسين . وأمرت خادمتي أن تنزعا عني ملابسي وقد لاحظت أن النسوة يتأملنني باهتمام عظيم ، فما كن ينتظرن أن يرين ما أحاط به من خضوع . فلما نزعت سترتي بدت عليهن الدهشة واضحة لمارأينه من جمال ملابسي ، وقد مدت إحداهن يدها تلمس الوشي شبه خائفة ، ثم خرجت . وبعد قليل عادت برفقة امرأة أخرى لاح أنها أكبر منها مقاماً وأوسع سلطة ، وعند دخولها أدت التحية كما ينبغي أن تؤدى ثم تناولت يدي واقتادتني إلى خيمة أصغر حجماً فرشت ببسط فاخرة نسبيا ، وفي هذه الخيمة قضيت ليلة هادئة ومن حولي خادمتاي .

« وفي الصباح كنت أجلس على الحشائش فجاءني زعيم الأعراب فنهضت لاستقباله وانحنى هو باحترام عظيم . قال : أيتها السيدة العظيمة إن حظي قد تجاوز آمالي ، فقد أبلغتني النسوة أن في مضاربي أميرة من الأميرات ، فأجبت : لقد خدعت نسوتك أنفسهن ثم خدعنك ياسيدي ، فما أنا بالأميرة ، وإنما أنا غريبة شقية كنت أنوي الرحيل عن هذه البلاد سريعاً فإذا بي الآن سجينة فيها إلى الأبد . فأجاب الأعرابي : « أيا كان

شخصك وأيا كانت بلادك فثيابك وثياب خادمتيك تنبئ بأنك عالية المقام واسعة الثراء . فماذا يحملك على الظن بأن أسرك سوف يكون أبديا وأنت الغنية التى تملكين أداء فديتك دون أدنى مشقة ، إن غايتى من هذه الغزوات التى أقوم بها زيادة مالى أو بتعبير أدق جمع الجزية من الناس . إن أبناء إسماعيل هم سادة هذه المنطقة من القاهرة . هم سادتها الطبيعيون ، ورثتها الأصليون . وقد اغتصبها منا غزاة طغاة أرومتهم وضيعة ظهروا فى آخر الزمان ، ونحن ننتزع منهم بحد الحسام ما نعجز عن انتزاعه باسم العدالة ، ولا حيلة لنا فى ذلك . والحرب لا تميز بين الناس فالرمح الذى يرتفع فى وجه الغاصب الجبار يرتفع كذلك فى وجه الوادع البرىء » .

« قلت : ما كنت أتوقع بالأمس أن ينزل بى هذا .

« فأجاب الأعرابى : لا بد من انتظار المصائب فى كل لحظة . ولو أن المعتدين يفسحون فى قلوبهم مجالا للتجلة أو للشفقة لما أصابك مكروه لأنك امرأة فضلى . ولكن ملائكة الانتقام تنشر أجنحتها على الفضلاء وعلى البغاة ، على الأقوياء وعلى الضعفاء . ولا تبتئسى فلست من قطاع الطرق قساة القلوب الخارجين على القانون الذين يطوفون بمسالك الصحراء ناهبين سالبين . فأنا أعرف أصول الحياة المدنية وسوف أحدد مقدار فديتك وأزود رسولك بإذن مكتوب يمكنه من المرور فيحمل شروطى بما ينبغى من السرعة .

« فلا عجب إذن إن كان أدبه قد طاب لى ، ولما رأيت أن شهوته الأولى كانت للمال زالت عنى مخاوفى ، فقد كنت أعلم أنكم لن تضنوا بشىء لتحرير بيكوا . ولقد أجبته بأنى سوف أحفظ لك الجميل لو أنه أحسن معاملتى كما أنبأته بأنكم سوف تؤدون عنى أية فدية فى الحدود التى تتمشى مع وصيفة عادية مثلى ، فعليه ألا يصر على فدية

تفتدى بها الأميرات ، فقال إنه سوف يتدبر فى الأمر قبل تحديد الفدية ، ثم ابتسم وانحنى وانصرف .

« وبعد قليل اجتمعت حولى النسوة وتنافسن فى إظهار التجلة ، بل إن خادمتى قد أصابنا من احترامهن شيئاً كثيراً . وأوغلت جماعتنا فى الرحيل ولكن رحلاتنا كانت قصيرة . وفى اليوم الرابع أبلغنى السيد أن فديتى لا يمكن أن تقل عن مائتى أوقية من الذهب ، فأجبته بأنى سوف أنقده خمسين أوقية أخرى لو التزم حدود الشرف معى ومع خادمتى .

« ولم أكن أقدر من قبل قيمة الذهب . فمنذ ذلك اليوم غدوت سيدة الجمع فكنت أشير عليهم بما نقطع من أبعاد فيصدعوا بأمرى ، وكانوا يضربون خيامهم حيثما رغبت فى الراحة . وجىء لنا بإبل نرحل عليها بدل الخيل وساغ سفرنا لما أحاطونا به من أسباب الراحة . وكانت خادمتاى تلازمانى بلا انقطاع ، وذهبت أرفه عن نفسى بدراسة أحوال البدو الرحل وبمشاهدة الأطلال البائدة وقد خيل إلى أن عدداً عظيماً من هذه العمائر كان يزين وجه تلك البلاد المقفرة فيما سلف من العصور .

« وكان رئيس العصابة رجلا أبعد ما يكون عن الجهل ، فكان يجيد السفر مستهديا بمواقع النجوم أو بالبوصلة ، وقد درس فى أسفاره المتشعبة من الأماكن ما يستحق دراسة العابرين ، وذكر لى أن أكثر العمائر احتفاظاً بكيانها ما كان منها قليل الورود عسير البلوغ ، فحين تنهار أمة وينقرض مجدها الأول تكثر عوامل التخريب حيث يكثر مقام الأهلين ، عندئذ يستغنى الناس عن المحاجر بالجدران وتتآكل القصور والمعابد فتخرج من الجرانيت مزاود الخيول ومن الصوان أكواخ الفقراء .

الفصل التاسع والثلاثون

بقية مغامرات بيكوا

« وهكذا تجولنا أسبوعاً بعد أسبوع ، وكان السيد يزعم أنه إنما يتجول على هذا المنوال للترفيه عنى ، وإن كنت أظن أنه كان يتبع غرضاً فى نفسه . وحاولت أن أبدى الغبطة حيث لا ينفع التجهم أو الغضب ولقد هدأ عقلى فعلا بهذه الرياضة ، ولكن قلبى كان مع نكاية دائماً وأربت همومَ الليل على أفراح النهار . ولم يكن لخادمتىَّ شغل غيرى فلما رأتا ما أعامل به من إكبار هدأ بالهما ، ونسيت كل نفسها فى أفراح اليوم العارضة التى تخفف من تعبنا فزال الحزن عنهما والقلق . وسعدت بسعادتهما وشجعنى اطمئنانهما وهدأ روعى كثيراً حين تبين لى أن الأعرابى يذرع الصحراء طلباً للغنائم وحدها . إن الجشع رذيلة تتشابه فى جميع أصحابها وهى رذيلة يسيرة الإرضاء ، أما الرذائل الذهنية الأخرى فتختلف باختلاف أصحابها ، فما يرضى غرور رجل ما قد يثير غرور رجل آخر . أما أهل الجشع فإرضاؤهم ميسور : إن زدتهم مالا لم يبخلوا عليك بشيء .

« وأخيراً بلغنا مسكن السيد ، وقد كان بيتا متين البنيان فسيح الجنبات شيد بالحجر على جزيرة من جزر النيل تقع كما ذكرت لكم عند مدار السرطان . وقال الأعرابى : وسوف تستريحين ياسيدتى من وعثاء السفر أسابيع قليلة فى هذا المكان ، وأنت فيه الملكة المتوجة . إنى أحترف القتال ، ولهذا اخترت هذا المسكن المنزوى ، فمنه أستطيع أن أخرج دون أن يعلم بى أحد وإليه أستطيع أن أعود دون أن أخشى المطاردين. فلتستريحى هنا فى أمان ، وإذا كانت الدار قليلة المسرات فهى

كذلك بمنأى عن الأخطار ، ثم اقتادنى إلى الحجرات الداخلية وأجلسنى على أريكة من أنفس الأرائك ثم انحنى وانصرف . وكانت نساؤه يعتقدن أنى أنافسهن مكانتهن عنده فنظرن إلى نظرة ملؤها الحسد ، ولكنهن علمن بعد قليل أنى سيدة ذات قدر عظيم وأنى أسيرة ابتغاء الفدية فأخذن يتسابقن فى إرضائى وفى إظهار ولائهن .

« ولما تجددت أمامى العهود بإطلاق سراحى بعد فترة وجيزة ، انصرفت عن ضيقى بالتعرف على الدار الجديدة . وكانت لها أبراج تطل على الريف فيرى المشاهد مساحات منه واسعة ويشرف على منحنيات النهر وهى كثيرة ، وفى النهار كنت أنتقل من مكان إلى آخر ، فقد كانت الشمس فى تسيارها تجدد روعة المنظر وتكسوه بمختلف الألوان ، فرأيت مالم تره عينى من قبل . وكانت التماسيح وعجول البحر تكثر فى هذه المنطقة المقفرة ، وكنت أفزع لمرآها برغم علمى بأنها لا يمكن أن تنالنى بأذى . وقد أنبأنى عملاق بأن الأوربيين قد وضعوا فى النيل طائفة من حور الماء فكنت فى مبدأ الأمر أتوقع أن أراها ، فلما لم يظهر منها شىء سألت الأعرابى فضحك من سذاجتى البالغة .

« وكان الأعرابى يصطحبنى فى أثناء الليل إلى برج منفصل خصص لرصد النجوم وهناك حاول أن يعلمنى أسماء الأفلاك ويعرفنى بمسالكها . ولم أكن أكترث لهذا النوع من الدراسة ولكنى تكلفت بعض الاهتمام إرضاء لمعلمى الذى كان شديد الفخر بدرايته . وبعد قليل وجدت أن الملل يفتك بى ، فالحياة بين أشياء معددوة لا تتغير تولد السأم ، فأدركت أنه لا بد لى من عمل أقتل به الوقت . كنت أفتح الجفن فى الصباح فأرى ما أغمضت عليه الجفن فى المساء . لذلك رضيت بدراسة النجوم دفعاً للفراغ ، ولكن دراسة النجوم لم تطيب نفسى تماماً ، ويحسب غيرى أنى أقرأ صفحة السماء وما كنت إلا أفكر فى نكاية . وسرعان ماخرج الأعرابى فى غزوة أخرى ، فما بقى لى إلا أن أتحدث مع خادمتى عما كان

من أمر اختطافنا وأصور لهما سعادتنا المقبلة يوم نخرج من الأسر. »

قالت الأميرة : « فقد كان معك بعض النساء فى قلعة الأعرابى فلم لم تفتحى لهن صدرك فتنعمى بحديثهن وتلتمسى السلوى فيما يعرفن من أسباب السرور ؟ وكيف تقنعين بهذا الظلام الذى يملأ النفس صدأ حين كانت غيرك من النسوة يجدن سبيلا إلى العمل أو إلى السلوى ؟ إنهن يحتملن هذا المصير طول الحياة فكيف ضقت بهذه الشهور المعدودات ؟ »

فأجابت بيكوا : « إن النسوة يتلهين بالألعاب الصبيانية ، وعقلى الذى تعوّد التفكير كان لا يقنع بما يقنعن به . ولقد كان فى مقدورى أن أفعل كل ما كن يفعلنه بحواسى وحدها . أما خواطرى فكانت تطير إلى القاهرة . لقد كن يجرين من غرفة إلى أخرى كما يتنقل الطير من سلك إلى آخر داخل قفصه . لقد كن يرقصن لا حبًّا فى الرقص ولكن طلباً للحركة كما تتواثب الحملان فى المرعى . وقد كانت بعضهن يوهمن الأخريات بأنهن قد جرحن فى أثناء اللعب حتى تفزع الأخريات ، أو يختفين حتى تبحث عنهن الأخريات . وكن يتلهين أحياناً بتأمل الأجسام الطافية وهى تسبح على وجه النهر والغيوم التى تغير أشكالها كل لحظة فى كبد السماء .

« وكان شغلهن الأوحد أعمال الإبرة ، وقد كنت أعينهن عليه مع خادمتىّ أحياناً ولكن أناملى لم يكن لها على خواطرى سلطان . وكيف ينتظرن أن تشغلنى أزهار الحرير عن نكاية فى ذلك المنفى السحيق .

« أما حديثهن فلم يكن لى فيه غنى ، فما رأين شيئاً يتحدثن عنه ، وقد عشن فى هذه البقعة المحصورة منذ شبابهن الباكر . لقد كن يجهلن القراءة والكتابة فكيف يعرفن مالم يرينه ؟ إن معارفهن كانت محدودة بما يقع تحت حواسهن ، فما كن يتحدثن إلا عن ثيابهن وطعامهن ، ولما كنت أقوى منهن شخصية فقد كن يلجأن إلىّ كثيراً لحسم ما ينشب بينهن من منازعات ، فكنت أقضى بينهن بالعدل ما استطعت إلى ذلك

سبيلا . ولو أنى استطبت ما كنت أسمع من شكاويهن لقضيت عامة نهارى فى تتبع رواياتهن الطويلة ، ولكن أسباب النزاع بينهن كانت من التفاهة بحيث جعلتنى أضيق بكل قصة عند منتصفها » .

قال الرأس إيلاس : «لقد وصفت الأعرابى بأنه رجل فذ واسع المدارك فكيف كان يرتاح إلى حريم قوامه مثل هؤلاء النساء ؟ أهن بارعات الجمال ؟ » .

فقالت بيكوا : « نعم ، إن مثل هذا الجمال الحيوانى التافه الذى قد نجده مجرداً من الخفة أو السمو أو الحيوية العقلية أو نبالة الطباع ، مثل هذا الجمال الحيوانى قد توافر لهن . ولكن الأعرابى كان ولا شك ينظر إلى جمالهن نظره إلى أزهار البستان ، يقتطفها ثم يقذف بها جانباً . ولو أنه استملح فهن شيئاً فإن ما استملحه ليس طيب المعشر أو أنس الصداقة . وقد كان ينظر إليهن فى إهمال المستعلى وهن يتلاعبن من حوله ، فإذا ما تسابقن إلى إرضائه كان يشيح عنهن بوجهه اشمئزازاً فى بعض الأحايين . وكان جهلهن يجعل من حديثهن لغواً لا يدفع شيئاً من سأم الحياة . وكان حبهن له أو تظاهرهن بالحب له لا يثير فى قلبه فخراً ولا امتناناً ، فقد كان حبا لا اختيار لهن فيه . كان يرى ابتساماتهن فلا يغتر بها ، فقد كان يعلم أن امرأة تبتسم لرجل لم تر غيره لا يقام لودها وزن . وكن يمطرنه بنظرات العطف فلا يكترث بها كثيراً ، فقد كان يجهل مدى إخلاصها ، وكثيراً ما كان يحس بأنها نظرات مغتصبة قصد بها إيلام المنافسات أكثر مما قصد بها إرضاؤه . وكل ما كان يعطيهن من حب وكل ما كن ينلنه من عطف لم يكن يتجاوز توزيع وقته الفائض بينهن ، وهو حب يستطيع الرجل أن يمنحه لامرأة يحتقرها ، وهو لا يثير رجاء أو إشفاقاً ولا يحرك الأفراح ولا الآلام.

قال عملاق : « إن لك أن تسرى ياسيدتى بسرعة تحريرك ، فكيف رضى هذا الاعرابى المتشوف إلى المعرفة أن يعتقك برغم ما يحيط به من

قحط فكرى وأنت صاحبة الحديث الذى لايمل ؟ » .

فأجابت بيكوا : « أعتقد أنه كان يتردد فى تسريحى زمناً ، فلقد كان برغم وعده كلما اقترحت عليه إيفاد رسول إلى القاهرة يلتمس المعاذير لتأجيل سفر الرسول . ولقد قام بجملة غزوات فى البلاد المجاورة فى أثناء مقامى ، ولو أنه عاد بما كان يأمل من غنائم لرفض على الأرجح إطلاق سراحى. وكان كل مرة يعود إلىّ بالغ الاحتشاد ويقص على أنباء مغامراته ويستمع إلى آرائى فى اغتباط شديد ويحاول أن يلقننى شيئاً جديداً فى أسرار النجوم . ولما ألحفت عليه أن يبعث برسائلى إليكم هدأ خاطرى بعهود الشرف والإخلاص ، فلما استنفد كل تسويف معقول خرج فى رجاله وتركنى أقضى فى داره فى أثناء غيبته . وقد أحزننى هذا التأجيل المقصود أشد الحزن ، وخفت أن تنسونى وترحلوا عن القاهرة بدونى فيكتب على أن أقضى ما بقى من عمرى فى جزيرة من جزر النيل . وأخيراً غلبنى اليأس وتكاثرت علىّ الهموم وانصرفت عن تسليته كما كنت أفعل فانصرف هو عنى إلى خادمتىّ . وكان أخشى ما أخشاه أن يتعلق قلب الرجل بى أو بهما على حد سواء، فى هذا الطامة الكبرى، وساءنى نمو الألفة بينه وبينهما أعظم إساءة . ولم يطل قلقى فقد عاد إلىّ بعد أن عاد إلىّ حبورى ، ولم أتمالك أن أحتقر نفسى لما ذهبت إليه من مخاوف .

« ولكنه دأب على التسويف فى طلب الفدية ، ولولا أن رسولكم قد اهتدى إلى مخبئه لما انتهى على الأرجح إلى قرار فى أمرى . وإذا كان لم يسع إلى الذهب فهو لم يرد الذهب حين سعى الذهب إليه . وعجل باعداد ركبنا تعجيل رجل محموم . واستأذنت من رفيقاتى فى الدار فودعنى بفتور شديد » .

ولما سمعت نكاية قصة صاحبتها نهضت وعانقتها ، وأعطاها الرأس إيلاس مائة أوقية من الذهب سلمتها إلى الأعرابى وما وعدته إلا بخمسين .

الفصل الأربعون

قصة عالم

وعادوا إلى القاهرة فرحين باجتماع شملهم حتى لقد لزموا دارهم واقتصدوا فى الخروج . ونبت فى الأمير حب المعرفة ، وقد صرح ذات يوم لعملاق أنه قرر أن يهب نفسه للعلم وأن يقضى ما بقى من أيامه معتزلا يدرس الأدب .

فأجاب عملاق قائلا : « ينبغى أن تلم بجميع النتائج قبل أن تقدم على اختيارك الأخير ، وهذا لا يكون إلا باستشارة رجل أفنى عمره فى حياة الاعتكاف . ولقد جئت الآن من مرصد يملكه فلكى من أوسع الفلكيين علماً فى جميع أقطار العالم ، وقد قضى هذا العالم أربعين عاماً يدرس حركات الأجرام السماوية وظواهرها دون أن يصيبه الكلال ، وقد أفنى نفسه فى عمليات حسابية مالها من نهاية . وهو يأذن لنفر من أصدقائه بإزعاج عزلته كل شهر ليطلعهم على نتائجه ويغتبط بما استكشف . وقد قدمونى إليه واصفين إياى بأنى من المثقفين الجديرين بصحبته . وأمثال هذا العالم ممن قضوا زمناً طويلا فى التخصص ويحسون بانقطاعهم عن تيار الحياة ليرحبون عادة بأهل الأفكار الغنية والحديث الطلى وقد أعجبته ملاحظاتى ، وحين قصصت عليه قصة أسفارى ابتسم لما سمع ونسى أفلاكه عن طيب خاطر وهبط إلى الأرض ليحيا بيننا لحظة أو لحظتين .

« وفى العطلة التالية عدته من جديد ، وسرنى ارتياحه إلى حديثى ، وقد خفف من تشدده معى فأذن لى أن أعوده فى أى وقت أشاء . وقد

وجدته فى شغل متصل ولكنه كان يرحب بكل راحة تأتيه على يدى . وكان كلانا شديد الرغبة فى الإلمام بعلم صاحبه، وهكذا تبادلنا الأفكار فى سرورعظيم ، وقد رأيت أنى أظفر بثقته كل يوم أكثر من سالفه ، كما أن إعجابى بتعمق تفكيره كان يتجدد مع الأيام . أما إدراكه فواسع ، وأما ذاكرته فواعية حافظة ، وأما حديثه فمرتب ، وأما عبارته فواضحة .

« ونزاهة هذا العالم وكرم أخلاقه لا يقلان عن علمه الغزير . فهو يعطل بحوثه مهما دقت ودراسته مهما كانت عزيزة عليه إذا سنحت له فرصة لفعل الخير ،إن بالإرشاد وإن بالعون المادى،وهو يفتح داره ويجود بأثمن أوقاته لكل من لجأ إليه سائلا معونته .وهو فى ذلك يقول : « إنى وإن كنت أضن على نفسى بالفراغ وأحرمها من أسباب السرور إلا أنى لا أغلق بابى فى وجه سائل يطلب الإحسان . إن الدراسة حق من حقوق البشر ولكن ممارسة الفضيلة واجب عليهم لزام » .

قالت الأميرة : « لا شك أن هذا الرجل قد وجد السعادة » .

أجاب عملاق : « لقد كثر ترددى عليه فازداد كلفى بحديثه : وجدت فيه السمو بغير غطرسة والأدب بغير تكلف والرغبة فى التعبير عن آرائه بغير تفاخر . وقد كنت فى مبدأ الأمر أرى رأيك أيتها الأميرة العظيمة : كنت أحسبه أسعد أهل الأرض طرًّا ، وكثيراً ما هنأته على ما نال من نعيم، فكان يبدو علية فتور عظيم لم أتعوده منه ويجيب بكلمات غامضة ثم يغير موضوع الحديث .

« وسرعان ما أحسست بأن عاطفة أليمة تفتك بقلبه فتكاً برغم رغبته فى إرضاء الآخرين ورضاه بحديثهم . وكثيراً ما كان يرفع بصره بلهفة إلى الشمس ثم يتهدج صوته فى أثناء الحديث ، وكثيراً ما كان يحملق فى

صامتاً ونحن منفردان وتبدو عليه الرغبة فى الإفصاح عن شىء يضطرب فى صدره ويريد أن يكبته كبتاً ، وكثيراً ما كان يرسل فى طلبى ويرجونى رجاء حارًّا أن أخف إليه ، فإن أقبلت عليه لم أجد فى كلامه شيئاً ذا بال ، وحين كنت أنصرف كان يستوقفنى ويتردد لحظات ثم يصرفنى من جديد ».

الفصل الحادى والأربعون

الفلكي يكشف عن سر اضطرابه

« وأخيرا خرج عن تحفظه وأفضى إلىّ بسره ، فقد كنا نجلس معاً فى برج مرصده نرقب ظهور تابع من توابع جوبتر . واكفهر وجه السماء فجأة فقد هبت عاصفة وأفسدت علينا المشاهدة . وجلسنا بعض الوقت صامتين فى الظلام ثم خاطبنى قائلا : لقد أحسست ياعملاق بأن صداقتنا هى أثمن ما فى حياتى . إن النزاهة لا نفع فيها ولا قوة لها إذا لم تقترن بالمعرفة ، كذلك المعرفة خطرة ومؤذية إلا إذا اقترنت بالنزاهة ولقد وجدت فيك كل مايستوجب الثقة لما لمست فيك صفاء الطبيعة واكتمال الاختبار والقدرة على احتمال الخطوب. أما أنا فأؤدى واجبى منذ أمد طويل ولا بد أن تحلنى الطبيعة من هذا الواجب قريباً ، ويسعدنى أن أنيبك عنى فى أدائه حين تحل أيام محنتى وأعود إلى طفولتى الثانية .

« ولقد شرفنى رأيه هذا فىّ فأجبت على مقاله بأن كل ما يسعده يسعدنى أنا كذلك .

« فقال : اسمع ياعملاق هذه القصة العجيبة ولسوف يصعب عليك تصديقها . منذ خمس سنوات وأنا أتحكم فى أحوال الجو وأحدد تعاقب الفصول ، وكانت الشمس تصدع بأمرى فتنتقل من مدار إلى مدار بإشارة منى ، والسحب تتفتق وتريق على الأرض ماءها بإذن منى . والنيل يفيض تحقيقاً لمشيئتى ، ولقد كبحت جماح الشعرى وقلت للسرطان اهدأ فهدأ . كل ما فى الطبيعة خضع لسلطانى ماخلا الريح ، ولكم هلك الناس كلما

فاجأتهم زعازع الاعتدالين . وكنت أقف أمام هذه الزعازع عاجزاً لا حيلة لى فى ردها أو ضبطها . ولقد كنت أؤدى هذه الأمانة بعدل تام وخصصت لكل قطر من أقطار الأرض نصيبه من المطر وضوء الشمس ولو أنى جمعت الغيوم فى مناطق معينة، أو حبست قرص الشمس فى نصف واحد من كرتنا الأرضية لغدا نصف العالم فى شقاء عظيم » .

الفصل الثانى والأربعون

الفلكى يفسر مقاله ويبرره

«وأعتقد أنه قرأ فى وجهى أمارات العجب والشك برغم ظلام الحجرة، فقد سكت قليلا ثم مضى فى حديثه قائلا : إن شكك فى صدق ما أقول لا يدهشنى ولا يغضبنى ، فلعلى أول بشرى أؤتمن على هذه الأسرار ، ثم إنى لست أدرى إن كان ما أصبت من معرفة لا نظير لها عقاباً أو ثواباً، فمنذ أن أوتيت هذا العلم وسعادتى قد نقصت حتى أوشكت أن تزول ؛ ولم يعد ما يحثنى على هذه اليقظة المتصلة إلا إحساسى بأنى قد وقفت حياتى على فعل الخير .

« قلت : ومتى جاءتك هذه الرسالة العظيمة ياسيدى ؟

« قال منذ عشر سنوات أو نحوها انتهى بى تأملى لتغيرات السماء إلى التفكير فى الخيرات التى يمكن أن أضيفها إلى البشر لو أن لى سلطاناً على الفصول .

« وتأصلت فى رأسى الفكرة فقضيت الأيام والليالى أتوهم نفسى سيداً على عناصر الطبيعة أسكب الغيث على هذا الصعيد أو ذاك ، وأجعل الشمس تشرق بعد ما تريق السحب ماءها فأحيل الجدب إلى خصب عميم . وكنت لا أملك إلا حسن المقصد ، ولكنى ما حسبت قط أن هذه القوة سوف تكون لى .

« وجاء يوم كنت فيه أتطلع إلى الحقول تتلفها حرارة الشمس ، فامتلكت نفسى رغبة مفاجئة فى أن أستمطر الغيث على جبال الجنوب وأجعل النيل يفيض . ولم أتدبر فى لهفتى ما أنا مقبل عليه فأمرت الأمطار

أن تهطل وسرعان ما فاض النيل فعلمت أن الأمطار قد استجابت لندائى » .

« قلت : ألا يجوز أن عاملا آخر قد سبب هذا التوافق ؟ إن فيضان النيل نتيجة لأمطار قديمة .

« قال بصبر نافد : لا تحسبن أن أمثال هذه الاعتراضات قد فاتت علىّ فلطالما جادلت نفسى برغم اقتناعى وتشككت فى الحقيقة بعناد شديد ـ ولقد ذهبت إلى الظن أحياناً بأنى مخبول وما كنت لأجرؤ على الإفضاء بهذا الأمر إلا لرجل مثلك ، قدير على التمييز بين ما هو محال وما هو عجيب ، بين ما هو كاذب وما هو بعيد على التصديق ».

وقلت : مادمت تعتقد ياسيدى بأن ما تقوله صحيح فلم تنعته بأنه بعيد على التصديق . »

«قال : لأنى لا أستطيع إثباته بالأدلة الظاهرية ، وأنا العليم بوسائل الإثبات وأعرف أن رأيى لن يقنع أحداً سواى إلا إذا كان يحس بحرارة إيمانى . لذلك لن أثير من حولى لجاجاً لإثبات رأيى أمام الناس ويكفينى أنى أحس بوجود هذه القوة فى نفسى ويكفينى أنى أباشرها كل يوم . ولكن الأجل قصير وأوصاب الشيخوخة تتكاثر علىّ ، ولسوف أعود ، أنا منظم الفصول ، إلى التراب . ولقد اشتغل بالى منذ أمد طويل بمن يخلفنى فى عملى هذا ، فكنت دائم التفكير فى الليل والنهار أوازن بين صفات من أعرفهم من الناس فلم أجد أحداً فى مثل كفايتك » .

الفصل الثالث والأربعون

« فاسمع إذاً ما سأدلى به إليك واستوعبه استيعاباً كاملا فخير العالم متوقف عليه . إننا نصف عمل الملك بأنه عمل شاق برغم أنه لا يحكم إلا ملايين معدودات من البشر ولا يملك لرعاياه نفعاً كثيراً أو ضرًّا كثيراً ، فما أشق عملى أنا المتحكم فى عناصر الطبيعة سيد الضوء والحرارة جميعاً ، وهى أعظم الهبات . اصغ إذن جيداً لما أقول .

« لقد درست موضع الأرض والشمس دراسة وافية ، ووضعت لكل منهما ألف ألف تصميم تبدل به مكانهما ، فكنت أزحزح محور الأرض أحياناً وكنت أغير المدار الإهليلجى الذى تسبح الشمس فيه ، ولكنى لم أنته من كل ذلك إلى وضع ينفع الأرض أكثر من وضعها الحالى . فقد كانت بعض البقاع تنتفع على حساب غيرها مهما أدخلت من تعديلات ، برغم تجاهلى للأجزاء النائية التى لا نعرف عنها شيئاً من المجموعة الشمسية . فلا يدفعنك الغرور إذن إلى استحداث شىء فى هذا النظام ولا تحسبن أن مقدورك الظفر بالخلود لو غيرت فصول العام . فكل ما تجنيه من ذلك شروبيل وذكرى غير عاطرة . كذلك لا يليق بك أن تخضع لعاطفتك أو مصلحتك ، فلا تحرم البلاد الأخرى أمطارها لتغدق الأمطار على بلادك . إنما نجد فى النيل كفايتنا » .

« ووعدت صاحبى بأن أستخدم هذه السلطة يوم تؤول إلى بنزاهة لا يرقى إليها الشك . فقال : لقد أرحت الآن بالى وطمأنت فؤادى ولن يقبض مضجعى بعد الآن رغبتى فى عمل الخير . لقد عثرت برجل من أهل الحكمة والفضيلة ، أهبه راضياً ميراث الشمس » .

وسمع الأمير هذه القصة بجد كامل ، أما الأميرة فقد ابتسمت ؛

وامتلكت نكاية نوبة من الضحك تشبه التشنج ، فقال عملاق :
« ليس من الكرم ولا من الحكمة أن نسخر من هذه المصيبة . وهى كبرى المصائب التى يمكن أن تنزل بالإنسان . فقليل من الناس قد بلغوا ما بلغه هذا الرجل من العلم ، وقليل من الناس لهم ماله من نفس خيرة ، ولكن ما من أحد يأمن تماماً شر هذه المحنة التى نزلت به . إن حياتنا الراهنة يكتنفها القلق من كل جانب وأفظع مصدر لهذه المخاوف هو اختلال عقل الإنسان » .

وهدأت نفس الأميرة وخجلت وصيفتها ، أما الرأس إيلاس فقد ازداد تأثره وسأل عملاقاً عن الجنون ومنشئه ومدى انتشاره بين الناس .

الفصل الرابع والأربعون

أضرار الإسراف فى الخيال

أجاب عملاق : « إن اختلال العقل بصوره المختلفة أكثر انتشاراً بين الناس مما يتوهم قصار الرأى . ولو أننا توخينا الدقة التامة فى التعبير لقلنا إنه ما من عقل فى العالم بأسره كامل الاتزان . أجل ، ما من إنسان لا يسيطر خياله على حجاه فى بعض الأحايين ، وما من إنسان يستطيع أن يوجه انتباهه بما يرضى إرادته وحدها ويتحكم فى أفكاره تحكماً مطلقاً فيسيرها حسب مشيئته . ما من إنسان لا تستبد به من حين إلى آخر أوهام جوفاء فيتمنى من الأمانى مستحيلها أو يستسلم إلى مخاوف ليس ما يبررها . وكل تسلط للخيال فى العقل درجة من درجات الجنون . ولكن هذا التسلط لا يلحظه أحد فينا ما أمكننا أن نضبطه ونوقفه عند حده ، فلا نجد بين الناس من يصفنا بالخبل وهو لا يعد جنوناً واضحاً إلا إذا استفحل فأثر فى كلامنا وفعالنا .

« والاستسلام لسلطان الوهم وإطلاق العنان للخيال ملهاة يتلهى بها كثيراً أولئك الذين يرتاحون أكثر مما ينبغى إلى التأمل الصامت . فحين ننفرد بأنفسنا قد لا نجد ما نعمله ، وعناء التفكير المجدى فى شئون الدنيا يثقل على النفس ، ومشقة البحث والاستقصاء تنتهى إلى حالة من الخمول أو الاكتفاء . فمن لم يجد فى العالم الخارجى ما يشغله لا محالة يطلب لذته فى أفكاره الخاصة ، ويتوهم فى نفسه ولنفسه ما ليس فيها أولها . فليس منا من هو راض بحاله قانع بواقعه ، وعندئذ ترونه يسبح فى محيط المستقبل وهو مترام بلا نهاية وينتقى من مفاتن الدنيا كل ما يشتهيه

فى ساعته ويركبه الغرور فيتوهم لنفسه سلطاناً لا سبيل له إلى بلوغه ، وهكذا ينتقل خياله من مسرح إلى مسرح مؤلفاً بين لذات الدنيا على كل وجه ممكن ، معربداً فى مجالى السعادة ، وهى سعادة تعجز عن تحقيقها كنوز الأرض وطبيعة الأشياء مهما سخت .

« وبعضى الوقت تتركز فى الذهن فكرة معينة ، وينصرف الذهن عن كل ما عداها ، وهكذا يعود الذهن دائماً إلى هذه الفكرة المختارة كلما أضنته الحياة أو كلما تعطل عن العمل ، وهكذا يحيا الذهن على الأكاذيب البراقة كلما صدمه الواقع المرير ، وهكذا يتوطد سلطان الوهم درجة درجة فيسطر على العقل ثم يستبد به . فإذا تم ذلك توهم المخبول الخيال حقيقة وامتلكت رأسه الآراء الزائفة وقضى حياته فى أحلام السعادة أو فى تباريح الشقاء .

« وهذه يا سيدى بعض أخطار الوحدة ، وقد اعترف الناسك بأن الوحدة لا تفضى دواماً إلى الخير ، أما محنة الفلكى فتثبت أن الوحدة قد تكون وبالا على التفكير السديد » .

قالت بيكوا: « لقد كنت أتخيل نفسى ملكة على الحبشة ، ولسوف أكف عن هذا التخيل . فلطالما بددت الساعات التى كنت أفرغ فيها إلى نفسى بإذن من سيدتى الأميرة ، أحلم فيها بالحفلات وأنظم شئون البلاط ، فكنت أسحق كبرياء المتغطرسين وأجيب مطالب المساكين ، وكنت أبنى القصور الجديدة فى مواقع أكثر بشراً وأروع جمالا من مواقع القصور التى نعرفها ، وكنت أستنبت الأحراش فى أعالى الجبال وأنعم طويلا بعز الملوك حتى لقد كنت أوشك أن أنحنى تحية للأميرة كلما دخلت » .

وقالت الأميرة : « وأنا لم أعد أتخيل أنى راعية من راعيات الغنم كما تعودت أن أفعل فى أحلام اليقظة . لطالما هدأت نفسى إلى حياة الرعاة الطاهرة الساكنة ، حتى لقد كنت من فرط الاستسلام لهذا الحلم

الجميل أتوهم الريح تصفر فى حجرتى والأنعام تثغو . وكنت أنا أرى الحمل مشتبكاً فى أغصان الغابة فأطلق سراحه ، وكنت آنا ألقى الذئب بعكازى . ولى ثوب من ثياب الفلاحات كنت أرتديه ليستكمل خيالى عدته ، ولى ناى كنت أعزف عليه النغم الحنون واهمة أن القطعان فى أعقابى » .

قال الأمير : «أما أنا فقد كان خيالى يستسلم لحلم ذهبى أشد خطراً من كل هذه الأحلام . فقد كنت أسعى دواماً إلى تصور الحكومة الكاملة التى تضع حداً لكل الشرور وتصلح كل الرذائل وتضمن لجميع رعاياها العيش الآمن الطاهر . وقد استولدت هذه الفكرة فى رأسى عدداً لا حصر له من المشروعات والقوانين والأوامر التى ترمى كلها إلى الإصلاح الاجتماعى . أجل ، كنت أتلهى بكل هذا فى وحدتى أحياناً أو أكد فيه وأنصب كلما واتانى الفراغ ، ولا أفيق منه إلا حين أذكر أنى بذلك أتمنى موت أبى وإخوتى » .

فقال عملاق : « إن هذه طبيعة الخيال ومشروعاته : فحين نبدأ هذه المشروعات نكون على علم باستحالتها ، ثم يألفها الذهن درجة درجة حتى تخفى علينا حماقتها » .

الفصل الخامس والأربعون

الجماعة تتحدث إلى شيخ هرم

وكان المساء قد أدركهم منذ زمن فنهضوا للأوبة إلى دارهم . وفيما هم يسيرون بحذاء النيل وينعمون بمرأى القمر إذ يترجرج نوره على سطح المياه ، أبصروا على بعد قليل شيخاً هرماً كان الأمير يستمع إلى حديثه كثيراً فى مجمع الحكماء . قال الأمير : « ذاك رجل كبحت الشيخوخة شهواته ، ولكنها لم تعبث بعقله ، فلنختم أبحاث اليوم بسؤاله عما يراه فى حاله ، فنعلم إن كان الشباب دون سواه هو عهد الأمل ونقف على ما بقى لنا من أمل فى بقية العمر » .

وهنا تقدم إليهم الشيخ وحياهم ، فدعوه إلى المسير معهم وتحدثوا إليه تافه الحديث كما يفعل الصحاب إذا التقوا على غير موعد . وكان الشيخ فى حال رضية ميالا إلى الكلام ، فهونت صحبته الطريق على الجماعة وسره ما لقى من عناية فسار معهم حتى بيتهم . ودعاه الأمير إلى الدخول فدخل . وأجلسوه فى مكان الصدارة وقدموا إليه النبيذ والأطعمة المحفوظة .

قالت الأميرة : « لابد أن نزهة المساء قد عادت عليك يا سيدى وأنت العالم الجليل بمتعة لا نعرفها نحن الشباب الذين لم نصب من العلم شيئاً فأنت تعرف كل شىء عما ترى ، تعرف عن النهر أسرار فيضانه وتعرف دورات الكواكب ، فكل شىء يدعوك إلى التأمل ويجدد إحساسك بمكانتك » .

فأجاب : « إن الشباب القوى المرح يجد فى النزهة المتعة أما الشيخوخة فحسبها من الحياة أن تجد الهدوء . إن الدنيا قد فقدت جدتها

فى نظرى ، وأنا الآن أتلفت حولى لأرى ما كنت أراه فى صباى الطرير . وأتكئ على شجرة لأستريح ، فأذكر كيف أنى ذات يوم كنت أقف فى ظل هذه الشجرة عينها أجادل صاحباً من أصحابى يرقد الآن تحت الثرى فى فيضان النيل . وأرفع عينى إلى السماء وأشخص ببصرى نحو القمر المتغير فأذكر الحياة وتقلباتها وفى نفسى غصة موجعة . إنى لم أعد أستطيب متع العالم المادى ، فأى صلة عادت تربطنى بهذه الدار التى سوف أرحل عنها قريباً ؟ » .

قال عملاق : « أقل ما بقى لك هو لذة الذكرى ، ذكرى حياتك الشريفة النافعة ، فانعم بهذه الذكرى وانعم بالثناء الذى يكيله لك كل عارفيك »

قال الحكيم متنهداً : « إن الثناء عند الشيوخ كلام أجوف . فمالى أم تزهو بصيت ولدها ومالى زوجة تشاركنى هذا المقام الرفيع . لقد امتد بى الأجل فدفنت خلانى وأعدائى على السواء ، ولم يعد فى حياتى شىء ذوبال ، فجميع آمالى قد ارتدت إلى ، إن الشباب ليرضى بالثناء لأن الثناء مقدمة لخير آجل ، والمستقبل أمام الشباب ممدود . أما أنا فقد شخت حتى الوهن ، ومن شاخ حتى الوهن لم يخفه لوم الناس ولم يرج من عطفهم أوتقديرهم شيئاً . ولقد يستطيعون النوال منى ، ولكنهم لن يستطيعوا نفعى بشىء فالمال لم تعد له قيمة ، ورفعة المقام تتمنى أكثر مما تسعد . إن استعراض الماضى يذكرنى بفرص ذهبية عديدة أهملتها ، وبالوقت الذى أضعته على التوافه وهو كثير ، وبساعات الفراغ والخمول وهى أكثر ، وهأنذا أقترب من حافة القبر ولما أبدأ بعد مشاريعى الجسام أو أتم منها ما قد بدأت . وإنى لم أسئ إساءة كبرى تقض مضجعى ولذا أطمع فى الهدوء ، وإنى لأتجنب الآمال والأمانى التى يتعلق بها قلبى بعد هذه السنين الطوال برغم أن عقلى يرى بطلانها . وأنا الآن أنتظر اللحظة التى أستوفى فيها أجلى راضى النفس صافى الضمير ، وأرجو أن

أصيب فى حياتى الثانية تلك السعادة التى فاتنى أن أصيبها فى هذه الحياة وأن أبلغ الفضيلة التى وقفت هنا ببابها ولم ألج » .

ثم نهض وانصرف تاركاً خلفه سحابة من اليأس خيمت على سامعيه فزهدتهم فى الحياة المديدة. وجلا الأمير الغمة بقوله إن حديث الشيخ لا يحزن ، فما زعم أحد أن الشيخوخة عصر السعادة . فإذا كانت الطمأنينة من نصيب الشيخوخة فلعل السعادة من نصيب الشباب ، عهد القوة والنشاط ، وإذا كان مساء الحياة هادئاً ساجياً فظهرها ناصع الضياء .

وقالت الأميرة إن الشيوخ لئام يضيقون بكل شيء وراقها أن تفجع الصغار فى آمالهم . فلقد رأت المالكين يحسدون ورثتهم على ما سيئول إليهم من نعم ، ولقد رأت من العجائز من لا ينعمون بلذة من اللذات إذا شاطرهم إياها سواهم .

ورأت بيكوا أن الشيخ لابد أن يكون أكبر سناً مما يلوح ، ونسبت شكاته إلى الكآبة والهذيان ، أو إلى سوء حظه فى الحياة قائلة : « ما أيسر أن يتوهم كل إنسان أن الحياة عامة صورة من حياته الخاصة » .

ولم يشأ عملاق أن يفسد عليهم الجو فابتسم لما سمعه من الآراء التى أخذ كل منهم يعزى نفسه بها ويعزى الآخرين ، وذكر أنه كان فى مثل عمرهم واثقاً من السعادة وثوقهم ملتمساً مثلهم ما شاء من أسباب العزاء . فتجنب أن يقحم عليهم تجاربه الأليمة تاركاً ذلك للزمن وهو لا يمهل . وانسحبت الأميرة ووصيفتها وقد اشتعل خيالهما بترهات الفلكى المخبول ، فرغبتا فى سؤال عملاق أن يتعلم فنه ويؤجل بزوغ الشمس فى الصباح التالى .

الفصل السادس والأربعون

الأميرة وبيكوا تزوران الفلكى

بعد أن تحدثت الأميرة وبيكوا على انفراد عن الفلكى الذى تكلم عنه عملاق استقر رأيهما على زيارته ، فقد بدا لهما شخصية جذابة غريبة ينبغى أن تمتحن عن قرب . ثم سألتا عملاقاً أن يدبر بينهما اللقاء المنشود .

ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، فالفلكى لم يأذن لامرأة بدخول داره طول حياته برغم أنه كان يعيش فى مدينة يقيم فيها كثير من الأوربيين الذين يتبعون عادات بلادهم كما يقيم فيها نزلاء جاءوها من جميع بقاع الأرض وأخذوا عن الأوربيين حريتهم . ولكن السيدتين لم تقنعا بالهزيمة وذهبتا تضعان الخطط المختلفة لتنفيذ مأربهما . وقد كان من هذه الخطط أن يقدما إلى الحكيم بوصفهما غريبتين فى محنة ترجوان الغوث ، والحكيم لم يوصد بابه قط فى وجه ملهوف . ولكن الجماعة نزلت عن هذه الخطة بعد شىء من التروى ، فقد وجدت أن حيلة كهذه لا تتيح لهما مخالطة الفلكى ولا تجيز لهما الإلحاف فى السؤال . قال الرأس إيلاس : « كل هذا صحيح ، ولكن عندى على استخفائكما اعتراضاً أقوى من ذلك ، لقد كان رأيى الثابت أن الاستفادة من سذاجة الناس مهما كان الدافع إليها جبن وتلويث لاشك فيه للطبيعة الإنسانية . إن الغش بجميع درجاته وأنواعه يهدم الثقة ويطفىء سراج الخير . وحين يتبين الحكيم حقيقتكما أسوف يغضب غضبة رجل عظيم الذكاء أدرك أن من دونه ذكاء قد غرروا به . ولقد يودى ذلك إلى الأبد بثقته فى الناس

فيقبض عنهم نصحه وهو غال ويمنع عنهم جوده وهو سخى . ومن أين لنا بعد هذا بما يرد إليه طمأنينة نفسه أو إيمانه بالناس ؟ »

ولم يجب أحد على هذا بشيء ، وأنشأ عملاق يعلل نفسه بأن فضول السيدتين سوف يخمد ، ولكن السيدة بيكوا جاءته فى اليوم التالى تقول له إنها اهتدت إلى عذر شريف يبديانه للفلكى حين زيارته ، فهى تحب أن ترجوه فى أن يأذن لها بإتمام الدراسة التى بدأتها بإشراف العربى ، وللأميرة أن تصحبها باعتبارها زميلة فى الطلب أو باعتبارها صاحبة تحرس خطاها ، فالنساء الفاضلات لا يخرجن من دورهن فرادى .
قال عملاق : « أعتقد أنه سيمل صحبتكما سريعاً ، فمن كان مثله غزير العلم لا يحب أن يعيد ما قاله بالأمس فى مبادئ العلم ، وإنى لأشك فى مقدرتك على التحصيل ، مهما أسف الحكيم إلى المبادئ الأولى ، فلسوف يمزج شرحه بتأملاته الخاصة ، ولسوف يضيف إلى تفسيراته ما تيسر له من استنتاجات » . فأجابت بيكوا : « هذا شأنى أنا ، وكل ما أطلبه منك أن تمضى بى إليه فلقد يتجاوز علمى كل ما تتوهم ، ولسوف أؤمن على كل رأى يبديه فيتوهم أن علمى أوسع مما هو فى الواقع » .

ولتحقيق هذا الرأى قيل للفلكى إن سيدة أجنبية تسافر طلباً للمعرفة قد بلغها صيته فسعت إليه لتتلمذ عليه . وقد عجب لهذا الاقتراح وثار فضوله ، وبعد ترو قليل أذن لها بالقدوم ، وانتظرها بصبر نافد حتى الصباح التالى .

وارتدت السيدتان أفخر ما تملكان من ثياب وقادهما إلى الفلكى عملاق ، وسر الفلكى أن يجد نفسه موضع احترام تلكما السيدتين العظيمتين . وقد بدا عليه الانكماش والحياء حين كانوا يتبادلون عبارات الترحيب ، ولكنه استرجع هدوءه لما انتظم الحديث . وسأل بيكوا عما دفعها إلى دراسة الفلك ، فقصت عليه قصة مغامرتها قرب الهرم وما كان من مقامها فى جزيرة الأعرابى . وكانت بيكوا تروى روايتها فى يسر

ورشاقة حتى امتلك حديثها على الحكيم حواسه . ثم دار الحديث حول الفلك فبسطت بيكوا أمام الحكيم علمها ، فتوسم الحكيم فيها النبوغ ورجاها أن تتم ما قد بدأت من دراسة بعد أن أصابت كل هذا التوفيق .

وتجددت الزيارات فما صادفوا إلا الترحيب المطرد . وحاول الحكيم أن يدخل السرور على أفئدتهم حتى يطول مكثهم ، فقد كان يجد أن صحبتهم تشحذ عقله وتثير جنانه . وزالت عنه غمة الوحشة درجة درجة فقد تولى الترفيه عن أضيافه برغم قصوره فى هذا الباب ، وكان يحزن كلما غادروه ويضيق بحساباته الفلكية .

وكانت الأميرة وصفيتها أشد ما تكونان التفاتاً إلى كل كلمة يتفوه بها الحكيم ، ومضت بضعة شهور على هذه الحال ولكنهما لم يظفرا منه بنطق ما يدل على إيمانه بقدرته الخارقة على تنظيم الفصول . وقد اجتهدتا كثيراً أن تستخلصا منه قولا صريحاً فى هذا الصدد ، ولكنه كان يتخلص كل مرة من هذا الإحراج بمهارة وينتقل بالحديث إلى موضوع آخر .

ولما اشتد ما بينهم من ود دعته السيدتان إلى دار عملاق حيث أحيط الحكيم بمظاهر التجلة التى لا نظير لها . وبدأت ملذات هذا العالم تجذبه شيئاً فشيئاً ، فكان يبكر فى الحضور ولا يبرح الدار إلا متأخراً ، وسعى جهده أن يحييهم فى محضره بالمواظبة وإجابة رغباتهم ، وأن يثير فضولهم للمعرفة الجديدة حتى يحسوا بحاجتهم إلى معونته ، وقد كان يرجوهم أن يقبلوه فى معيتهم كلما خرجوا فى نزهة أو رياضة .

وبعد هذا الاختبار الطويل لحكمته وأمانته انتهى الأمير وأخته إلى ائتمان جانبه وقد أطلعاه على حقيقة حالهما مخافة أن يخدعه أدبهما فيطمع فى العطاء ، وشرحا له مقصدهما من الأسفار وسألاه النصح فى تخير « الحياة السعيدة » .

قال الحكيم : « الحياة تعرض عليكما وجوهها وليس فى وسعى أن أدلكما على أسعد هذه الوجوه . وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنى قد أسأت

الاختيار . فلقد أنفقت عمرى فى الدراسة ففاتنى الاختبار ، وما درست من العلوم إلا أقلها نفعاً لبنى الإنسان . أجل ، لقد كان الثمن الذى اشتريت به المعرفة نزولى عن سائر أسباب الراحة فى الحياة ، فضاعت منى صحبة النساء وهى جميلة وضاع منى حنان الأسرة وهو من أسرار السعادة . ولقد كان امتيازى على سواى من العلماء امتيازاً يلابسه الخوف والقلق والحرص الشديد . ولقد بدأت أشك فى قيمة هذا الامتياز ذاته منذ أن ازداد احتكاكى بالدنيا فتفتحت نفسى للحياة واتسعت أفكارى . وكلما مرت بى أيام أنعم فيها بلذة الحياة خيل إلى أن دراستى قد انتهت بالضلال وإنى قد شقيت دهرى دون ما جدوى » .

وسر عملاق أن يرى الغشاوة تسقط عن بصر الحكيم والغيوم تنقشع عن بصيرته ، واعتزم أن يبعده ما أمكن عن أجرامه السماوية لعله ينسى ما ذهب إليه من إخضاعها لإرادته ، فيسترد بذلك رشده ويثوب إلى صوابه .

ومنذ ذلك اليوم غدا الفلكى صفياً من أصفيائهم ، وشاركهم لهوهم وجدهم ، فكان احترامه لهم يحمله على الالتفات إلى كل ما يقولون وكان نشاط الرأس إيلابس يملأ كل فراغه . وهكذا ازدحمت أيامهم : فالنهار يقضى فى اختبارات تزود الليل بمادة الحديث ، أما الليل فينتهى بمشروع جديد للنهار .

واعترف الحكيم لعملاق بأن اعتقاده بسيطرته على الأفلاك قد أخذ يتلاشى من ذهنه درجة درجة منذ أن اتصل بجماعتهم المرحة وأخذ يوزع ساعاته بين أسباب السرور ، وشهد له بأنه قد بدأ ينزل عن نظريته التى عجز عن إثباتها للآخرين ، فهو يراها تتبدل كل يوم دون ما سبب معقول . قال : « ولو انفردت بنفسى ساعات قليلات امتلكنى هذا الاعتقاد الراسخ وتسلطت على نفسى قوة لا قبل لى بها ، فما إن يتحدث إلى الأمير أو تدخل على بيكوا حتى أتحرر من هذا الاعتقاد وتنطلق

نفسى من هذه الأغلال . وإن مثلى لمثل رجل يخشى الأشباح كلما رآها ، وتطمئن نفسه إن جاءه مصباح ويعجب للمخاوف التى نهشته وسط الظلام ، فإذا ما انطفأ مصباحه عادت إليه مخاوفه من جديد وهو يعلم أنها سوف تتبدد مع النور . غير أنى أخشى من حين لآخر أن ينتهى بى حب الهدوء إلى إهمال عملى ، وهو جريمة نكراء ، وأن أنسى الرسالة الجليلة التى كلفتنى المقادير بأدائها فى الحياة . فلو أنى حابيت نفسى فى مثل هذا الخطأ الشائع أو زينت لى الراحة أن أنفض يدى من هذا الأمر الخطير الذى لم يتبين بعد صوابه من ضلاله فلن أغفر لنفسى هذا الجرم ما حييت » .

فأجاب عملاق قائلا : « ليس بين أمراض الخيال ما استعصى على العلاج كمخافة الخطيئة ، فالوهم والضمير يصطلحان عندئذ علينا ويختلطان فى نفوسنا فلا نعود نميز بين هواجس الوهم وأوامر الضمير . والخيال قد يهيئ لنا أشياء تتنافى مع الدين أو مع الأخلاق فلا يجد الذهن عسراً فى طردها من نفوسنا ، أما إذا تقمصت الأفكار السوداء صورة الواجب فهى تنشب مخالبها فى النفس دون أن تجد ما يردها فنحن نخاف أن نتخلص منها . لهذا نجد أن المستسلمين للخرافات أكثرهم من أصحاب الأفكار السوداء ، كما نجد أن أكثر أصحاب الأفكار السوداء يؤمنون بالخرافات .

« ولكن لا تدع هذه المخاوف تصرع تفكيرك الرشيد : فإهمالك رسالتك لا يزيد احتمالا عن قيامك بواجبك ، ولو قد نظرت إلى واجبك نظرة مجردة من كل قيد لوجدت أن هذا الواجب فى ذاته ضئيل ، وأن هذا الواجب على ضآلته يتضاءل يوماً بعد يوم . فافتح إذن فؤادك للنور الذى يشرق عليه من حين لآخر . فإن عذبك نداء ضميرك وأنت تعلم فى لحظات صحوك التام أنه نداء زائف ، لا تضيع وقتك فى الجدل ، بل بادر إلى العمل وأطلب صحبة بيكوا ولا تنس قط أنك لا تتجاوز أن

تكون ذرة تافهة فى محيط الإنسانية الكبير ، وأنك لم تزود بفضيلة من الفضائل الكبرى حتى تختصك السماء برضاها ولا برذيلة من الرذائل الكبرى حتى تنفرد بغضب السماء » .

الفصل السابع والأربعون

الأمير يدخل ويغير موضوع الحديث

قال الفلكي : « ما أكثر ما تدبرت كل ما تقول ، ولكن عقلى قد استعبدته زمناً طويلا فكرة جبارة لا سبيل إلى ردها حتى غدا قليل الإيمان بما يصل إليه من نتائج . وإنى لأرى الآن كيف أفسدت سلام حياتى حين استسلمت فى دخيلة نفسى للترهات . ولكن الأفكار السوداء تجعل صاحبها يخشى أن يصارح الغير بها ، وما وجدت قبلك رجلا أستطيع أن أسر إليه أوجاعى برغم أنى كنت واثقاً من أن التنفيس يزيل غمتى ويرفع كدرى . وإنى لسعيد بأن أجد فى رأيك ما يدعم رأيى ، وأنت الحصيف الذى لا يسهل خداعه ، وأنت الأمين الذى لا يجد مبرراً لخداعى ، وآمل أن يبدد الزمن والحياة المتجددة هذه الكآبة التى اكتنفتنى فأقضى بقية عمرى فى سلام » .

فقال عملاق : « إن سعة علمك وكرم نفسك لخليقان بأن يحققا لك هذا الرجاء » .

وعندئذ دخل عليهما الرأس إيلاس ومعه الأميرة وبيكوا ، وسألهما عما أعداه من جديد لمتعة الغد .

وقالت نكاية : « هذه شيمة الحياة : فما من أحد يجد السعادة إلا فى انتظار الجديد . والتغيير فى ذاته لا قيمة له ، فحين يتحقق لنا التغيير نطلب تغييراً جديداً . إننا لم نستنفد كل ما فى الدنيا من وجوه جديدة فلنبحث غداً عن شىء لم أره من قبل » .

قال الرأس إيلاس : « إن السعادة لا تكون بغير التغير ، فالوادى

السعيد ذاته قد عافته نفسي لأن نعيمه كان رتيب الصور : ولكنى لم أستطع أن أمسك عن تأنيب نفسى حين رأيت رهبان القديس أنطونيوس صابرين يتحملون الحياة الشاقة الرتيبة الصعاب لا الحياة اللينة الرتيبة اللذات » .

فأجاب عملاق قائلا : « إن أولئك الرهبان أقل تعساً فى ديرهم الهادئ من أمراء الحبشة فى سجن السعادة . فالراهب يعمل ما يعمل مدفوعاً بعوامل كافية ومسوغات معقولة . وكدهم يأتيهم بضروريات الحياة ولابد أن يحسب حسابه ، وهو لاشك يؤتى ثمره ، وتهجدهم يعد نفوسهم للعالم الآخر ويذكرهم بقرب مجيئه ، أما وقتهم فوزع توزيعاً منظماً ، والواجب فى أعقابه واجب ، فهم لايتعرضون لملل الفراغ أو لملل الخمول . إنما لكل وقت عمله ، وهم يكدحون راضين لأنهم يرون فى كدحهم مظهراً من مظاهر الورع يقربهم بأطراد من السعادة الأبدية » .

قالت نكاية : « أو تعتقد أن نظام الرهبانية أقرب إلى الكمال أو أقل نقصاً من أى نظام آخر ؟ ألا يأمل فى النعيم من خالط الناس واندمج فيهم فأغاث ملهوفهم بإحسانه وعلم جاهلهم ببيانه وساهم بجهده فى بناء الحياة ، وإن لم يعذب نفسه على غرار الرهبان ، وإن أقبل على بريئ اللذائذ التى تضعها الحياة فى طريقه ؟ »

فأجاب عملاق : « إن هذه المسألة قد اختلف فيها الحكماء وحار فيها أهل الخير منذ القدم ، فكيف أقطع فيها الآن برأى؟ إن من يحيا حياة صالحة بين الناس لخير ممن يحيا حياة صالحة بين جدران الدير . ولكن لعل بعض الناس لايقوون على مقاومة الغوايات فى الحياة الاجتماعية ومن لم يستطع أن ينتصر على الغواية فله أن يتراجع أمامها . فمن الناس من كانت قدرتهم على فعل الخير وقدرتهم على مقاومة الشر ضئيلة محدودة . ومن الناس من أعياهم صراعهم مع الشدائد فأحبوا

أن يتخلصوا من مصدر شقائهم ، ومن الناس من أقعدتهم الشيخوخة أو أقعدهم المرض عن العمل المضنى الذى يقتضيه المجتمع من أبنائه . وفى الدير يعتصم العجزة والجازعون من الحياة ، وفى الدير يرتاح المتعبون ويفرغ الخطاة إلى التأمل فى توبتهم . وإن فى هذه المعتكفات التى يتجرد فيها الإنسان للعبادة والتأمل راحة للعقل أى راحة ، ونحن لا نكاد نجد رجلا واحداً لا يتمنى أن يقضى بقية أيامه فى التجرد والتقوى بين نفر من أصحابه يشبهونه فى التجرد والتقوى » .

قالت بيكوا : « إن هذه لأمنيتى فى الحياة ، ولقد سمعت الأميرة تقول إنها تكره أن تموت بين الناس » .

ومضى عملاق فى حديثه قائلا : « إن حق الإنسان فى اللذات البريئة لا جدال فيه، ولكننا لا نعرف بعد أى اللذات برىء وأيها خبيث. والشر الذى يصاحب أى لذة تتصورها نكاية ليس فى اللذة ذاتها ولكن فى عواقبها . فاللذة فى ذاتها بريئة ولكنها قد تعود علينا بالأذى إذا حببت إلينا العرض الزائل وصرفتنا عن التفكير فى الأبدية التى نقترب من بدايتها ساعة بعد ساعة ولا يستنفدها مر الأيام وانطواء العصور . وتعذيب النفس ليس فى ذاته فضيلة ، ولا نفع فيه سوى أنه يصرفنا عن مغريات الحواس . أما الحالة المثلى التى سنصير إليها فى قابل الأيام ونتطلع إليها جميعاً منذ الآن ففيها اللذة منزهة عن الأخطار وفيها الأمن الذى لا يكلف أحداً كدّاً ولا كدحاً » .

وسكتت الأميرة . والتفت الرأس إيلاس إلى الفلكى وسأله إن كان يستطيع أن يؤجل اعتكافها بصور جديدة من العالم يعرضها عليها .

فأجاب الحكيم قائلا : « لقد كان حبكم للاستطلاع قوياً ورغبتكم فى المعرفة شاملة فلم تتركوا من صور الحياة إلا قليلا . ولكن ما تضن به الحياة قد يجود به الموت . فمن عجائب هذه البلاد مقابرها ، وهى

سراديب وضعت فيها أجداث الأولين وحفظها التحنيط بالعقاقير من البلى ورد عنها العفاء » .

قال الرأس إيلاس : « أنا لا أفهم كيف تكون زيارة المقابر مبعثاً للسرور ، ولكنى قد عزمت على رؤيتها لأنى لا أجد ما أراه سواها ، ولسوف أضيف هذا العمل إلى الأعمال الكثيرة التى أتيتها دفعاً للفراغ ليس إلا » .

واستأجرت جماعتهم نفراً من الفرسان للحراسة : وخرجت فى اليوم التالى إلى المقابر . وحين هموا بالنزول فى كهوف الموتى قالت الأميرة : « أى بيكوا ، ها نحن أولاء نؤم منازل الموتى للمرة الثانية ، وأنا أعلم أنك سوف تتخلفين ، فأرجو أن أجدك سالمة حين أعود إليك » . فأجابت بيكوا : « بل سوف أنزل معكما القبر وليكن موضعى بينك وبين الأمير ، فلن أتخلف هنا بمفردى » .

وهبطوا جميعاً وتجولوا فى السراديب التى تضل فيها خطى الزائرين حيث نام الموتى مصففين على الجانبين .

الفصل الثامن والأربعون

عملاق يتحدث عن طبيعة الروح

قال الأمير : « وماذا دفع المصريين إلى أن يتكبدوا كل هذه النفقات ليحفظوا أجداثهم من البلى ، على حين نجد أقواماً تحرق الجثمان وأقواماً تضع الجثمان فى التراب ليختلط الجثمان بالتراب . وقد أجمع الجميع على التخلص من موتاهم بعد أن تجرى لهم طقوس الموت الكافية مباشرة ؟ »

قال عملاق : « إن منشأ العادات القديمة لا علم لأحد به . وكثيراً ما تدوم العادة بعد اختفاء الداعى الذى سببها . أما المراسم الخرافية فلا جدوى من التفكير فى أصولها ، لأنها ليست من عمل العقل ، ومالم يخلقه العقل لا يستطيع العقل أن يفسره وقد كان رأيى الثابت أن عادة التحنيط تنشأ من وفاء الناس لأجداث الأهل والأصحاب . وما زلت عند رأيى هذا ، ويؤيدنى فيه أن مثل هذه العادة لا يمكن أن تكون عادة شائعة ، فلو أن كل من ماتوا حنطوا لتجاوزت مساكن الموتى مساكن الأحياء . وأعتقد أن سراة الناس وأماجدهم قد حفظوا دون سواهم من الفناء ، أما سائر الناس فقد تركوا للطبيعة تجرى فيهم مجراها .

« ولكن الرأى الشائع هو أن المصريين كانوا يعتقدون بأن الروح تعيش ما عاش الجسد ولذا فقد ابتكروا هذه الطريقة ليتجنبوا الموت » .

قالت نكاية : « كيف استطاع المصريون أن يتوهموا هذه الأوهام الساذجة عن الروح ؟ فلو أن الروح استطاعت أن تعيش بمفردها بعد انفصالها عن الجسم فماذا تستفيد الروح من الجسم وماذا تخشى منه ؟ » .

وقال الحكيم: « لم يكن بد أن يضل المصريون فى تفكيرهم أيام كانوا فى ظلام الوثنية وفى فجر الفلسفة . وإن طبيعة الروح لا تزال موضع بحث الباحثين برغم كل ما لدينا من فرص المعرفة الدقيقة ، وإن من الناس من يقول إن الروح قد تكون مادية الجوهر ومع ذلك فهو ينسب لها الخلود » .

فأجاب عملاق قائلا : « حقاً إن بين الناس من يرى أن الروح من مادة ، ولكن لا أعتقد أن بين أصحاب هذا الرأى واحداً من أصحاب الفهم والمنطق . فجميع دلائل العقل تؤكد أن الذهن مجرد من المادة وجميع دلائل الحس وأبحاث العلم تتفق فى إثبات خلو المادة من الوعى » .

« فما من أحد يرى أن التفكير خاصة من خواص المادة ، أو أن كل دقيقة من دقائق المادة كائن مفكر . ومع ذلك لو جردنا كل جزء من أجزاء المادة من التفكير ، فأى جزء من أجزاء المادة يمكن أن ننسب له التفكير الذى نرى فى الحياة . إن المادة لا تختلف عن المادة إلا فى الشكل وفى الكثافة وفى الحجم وفى الحركة وفى اتجاه الحركة ، فبأى هذه الخصائص نستطيع أن نربط الوعى سواء فرادى أو مجتمعات . فالشكل المستدير والشكل المربع والصلابة والسيولة والضخامة والضآلة ، وبطء الحركة وسرعتها فى هذا الاتجاه أو فى ذاك ، كل هذه حالات للوجود المادى كلها بعيدة عن طبيعة التفكير ، وهى بعيدة عنه بعداً متساوياً . فإذا كانت المادة خلواً من التفكير ، فلا سبيل إلى التفكير إلا إذا دخل عليها تحول جديد ، ولكن كل تحول يمكن أن يدخل على المادة لا صلة بينه وبين قوة التفكير » .

قال الفلكى : « ولكن الماديين يحتجون بأن المادة قد تكون لها خواص لا علم لنا بها » .

فأجاب عملاق : « ليس من عقلاء الناس من يقطع بفساد ما يعلم لمحض احتمال وجود ما لا يعلم ، ويرجح الإمكانية المفترضة على الثابت

المقرر ، فكل ما نعرفه عن المادة أنها خاملة ،لا حس فيها ولا حياة . فإذا لم نجد مفنداً لهذا الرأى فى المادة إلا إمكان وجود شىء ، لا نعلمه ، فقد اجتمع لنا كل ما يقنع المنطق الإنسانى . فلو أن ما لا نعلم ينسخ فى أذهاننا ذلك الذى نعلم لما وصل كائن إلى اليقين إلا الكائن الأعلى الذى تناول علمه كل شىء » .

قال الفلكى : « ولكن فى هذا حداً وقحا لقدرة الخالق ، فلنتجنبه »

قال الشاعر : « نحن لا نحد قدرة الخالق التى تتناول كل شىء إذ نقول إن الشىء مناقض لغيره أو أن القضية الواحدة لا يمكن أن تكون صحيحة وكاذبة فى وقت واحد ، أو أن العدد الواحد لا يمكن أن يكون فردياً وزوجياً معاً ، أو أن التفكير لا يمكن أن ينسب إلى شىء عاجز عن التفكير بحكم تكوينه » .

قالت نكاية : « أنا لا أرى جدوى للبحث فى هذا الموضوع ، لقد أثبت لنا بما يكفى تجرد الروح من كل مادة من حيث تكوينها . فهل لا مادية الروح هذه تتضمن بالضرورة مبدأ الخلود ؟ »

أجاب عملاق : « إن علمنا باللامادية علم سالب كله ، وهو لهذا غامض . ولكن يبدو أن اللامادية تتضمن القدرة الطبيعية على البقاء الأبدى ، لأن اللامادية معفاة من جميع أسباب الانحلال والفناء . فكل ما يفنى بانحلال الأجزاء التى يتركب منها نسيجه ، يفنى بتفكك أجزائه . ونحن لا نستطيع أن نتصور كيف أن شيئاً لا أجزاء له ، وبالتالى غير قابل للتفكك ، يخضع لعوامل التعفن والهدم التى تلازم الطبيعة » . قال الرأس إيلاس : « أنا لا أستطيع أن أتصور وجود شىء لا امتداد له ، وكل ماله امتداد له بالضرورة أجزاء ، وكل ماله أجزاء باعترافك يخضع للهدم » .

فأجاب عملاق : « تأمل أفكارك يسهل عليك الاقتناع بما أقول . فأفكارك جوهر لا امتداد له . والصور المجردة لا تقل واقعية عن الماديات

ذات الأحجام، ومع ذلك فالصور المجردة لا امتداد لها وحين تفكر فى الهرم فذهنك يحوى صورة مجردة للهرم، وهذه الصورة موجودة فى الواقع وجود الهرم ذاته فى الواقع . فأى فرق هناك بين الفراغ الذى تملؤه فى ذهنك فكرة الهرم والفراغ الذى تملؤه فى ذهنك فكرة حبة من حبوب القمح ؟ وهل يمكن تمزيق هذه الفكرة أو تلك ؟ والعلة كالنتيجة ، وما تقوله فى الفكر تستطيع أن تقوله فى القوة المفكرة . إنها قوة سالبة لا تدرك » .

قالت نكاية : « ولكن الكائن الذى تضطرب لذكره نفسى ، الكائن الذى خلق الروح مستطيع أن يحطمها . »

فأجاب عملاق : « لاشك أنه مستطيع أن يحطمها ، فمهما تكن الروح خالدة فهى تستمد قدرتها على البقاء من طبيعة أسمى من طبيعتها وبالفلسفة ثبت أن الروح لن تتلاشى نتيجة لعوامل الانحلال أو ناموس الفناء ، ولكن الفلسفة تقف عند هذا الحد . وهنا نحتاج إلى حجة أسمى تلهمنا أن الخالق الذى خلق الروح لن يحطمها . » وبعد أن فرغ عملاق من كلامه ساد الصمت بين الجميع وثاب كل إلى نفسه . وقال الرأس إيلاس : « ألا فلنغادر هذه الدار ، دار الموتى ، فما أشد كآبتها لمن جهل أنه باق لايموت ، لمن جهل أن القوة التى تعمل الآن ماضية فى نشاطها ، لمن جهل أن الروح التى تفكر الآن سوف تفكر إلى أبد الآبدين . إن من نراهم أمامنا ممددين ، وهم حكماء العالم القديم وسادته ، إنما يذكروننا بقصر حالتنا الراهنة . ولعل المنية اختطفتهم وهم يشتغلون اشتغالنا بالبحث عن السعادة » .

قالت الأميرة : « إن البحث عن السعادة فى دار الفناء لم يعد الآن يشغلنى كما كان يشغلنى من قبل ورجائى منذ الآن أن أنقطع للبحث عن السعادة الأبدية دون سواها » .

وخرجوا من المقابر مسرعين ، وعادوا إلى القاهرة فى حمى الحراس .

الفصل التاسع والأربعون

الخاتمة التى لا تختم شيئاً

وحل وقت فيضان النيل : فبعد زيارتهم لمقابر الأولين بأيام قليلة بدأ صدر النهر يرتفع .

ولزموا دارهم . ورغبوا عن الرحلات لأن الماء قد غمر المنطقة كلها . ووجدوا كفايتهم من الحديث لإزجاء الفراغ ، فوازنوا بين صور الحياة التى رأوا ، وتبادلوا الأمانى ، فقد رسم كل لنفسه خطة تهديه إلى الحياة السعيدة فى قابل الأيام .

أما بيكوا فلم تر شيئاً سحر خيالها كدير القديس أنطونيوس ، حيث ردها الأعرابى إلى سيدتها الأميرة ، وكان قصارى رجائها أن تملأ جنبات ذلك الدير بالعذارى الطاهرات وأن تنصب عليهن رئيسة ، ولقد أمضها طول الانتظار وعافت الحياة المتقلبة ، فوجدت سعادتها فى التماس الحياة الثابتة التى لا يحدث فيها جديد .

ورأت الأميرة أن أثمن ما فى الحياة الدنيا هو المعرفة ، فتمنت أن تدرس جميع العلوم أولا ثم تؤسس مدرسة تجمع فيها عالمات النساء وتديرها بشخصها ، وهكذا توزع وقتها بين تحصيل المعرفة وإعطائها للغير ، تتحدث إلى الكبيرات وتؤدب الصغيرات ، وتعد للجيل القابل نماذج من الحزم والصلاح .

وتمنى الأمير مملكة صغيرة يقيم فيها العدل بنفسه ويشرف فيها على جميع فروع الحكومة ولكنه تردد فى تحديد تخوم دولته ومد سلطانه على رعايا جدد كل يوم .

بقى عملاق والفلكى ، وقد ترك كل منهما نفسه يطفو فى تيار الحياة قانعاً بذلك ، لا يطلب وجهة ولا يسعى إلى مرفأ معين .

ولكن الأمانى جميلة ، وقد كانا يعلمان أن منالها محال . فتشاورا قليلا فيما ينبغى عليهما عمله وأخيراً قررا أن يعودا إلى الحبشة بعد انتهاء الفيضان .

. . . .

تمت الترجمة فى باريس ١٩٤٦

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٥٣٨ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١